عبد المجيد نافع الميحاني

بريطانيا النازية

البرنامج الوطنى

تحرير النيـــل

تحرير النيل ، من المنبع إلى المصب ، من ربقـــة الاستعمار البريطانى — هذا هو شعار الوطنية ، للنازلين على ضفاف النهر المبارك ، منذ فجر النهضة الاستقلالية ، لا يبغون عنه حولا ، ولا يجدون أى فداء فى سبيله عزيزا .

أنطبع هذا الشعار المقدس ، بحروف من نور ، أو حروف من نار ، على صفحات قلوب أبنـاء الوادى ، من ربع قرن أو يزيد ، فلا يحل ، فى شريعة الوطنية الصادقة ، أن ينكص المجاهدون على أعقابهم ، ولا يجوز فى عقل عاقل ، ولو كان من غلاة المستعمرين ، أن يتقهقر المؤمنون بحقهم ، ولا يتقدمون .

فاذا تزحزح كابوس الاحتلال البريطانى عن صدر شمال الوادى ، وظل جاثما على صدر جنوبه ، فتلك حرية زائفة ، واستقلال خيالى ، للأخوين الشقيقين ، فالمتحكم فى منابع النيل ، متحكم فى مصاير مصر.

ولئن تطهرت أرض المدن المصرية ، من كل أثر لأقـــدام الغاصب ، ثم مكن للغاصبين ، فى منطقة القناة ، فذاك هو الجلاء المزيف ، فما اقتطعت تلك المنطقة من جسم الدولة المصرية ، ولا انتزعت من بين جنبيها الروح الوطنية ، وإنما هى بضعة من جسم

الأمة المصرية ، فاذا شكت من آثار الاحتلال ، تداعى لها سائر المصريين بالشكوى والألم .

ولئن بيت المستعمرون الكيد لاستقلال مصر ، فأضمروا أن يخدعوها عن الحق والحقيقة ، فيسبغوا عليها أثواب الحماية ضافية ، تحت أستار المحالفة ، أو فى ظلال الدفاع المشترك ، فما كان للمؤمنين بالحرية ، أن يؤمنوا بالحماية ، ويكفروا بالاستقلال .

ومهما افتن ذئاب الاستعمار فى بتر السودان عن جسم مصر ، بدعوى الاستفتاء ، وتحت ستار الغيرة على حرية الشعوب ، فما هم بقادرين على خداع الأخوين ، أو قطع ما أمر الله به أن يوصل ، وكيف السبيل الى الخداع ، وتاريخ الامبراطورية البريطانية حافل بأخزى صفحات الاستعباد وأدماها ، فكيف يؤمن الناس لعهودهم ووعودهم ، وقد أغرقوا وثيقة الأطلسى فى أعمق أعماق المحيط ، وجعلوا الحريات الأربع ، أو الفقاقيع الأربع ، تتبخر فى الهواء . وكيف يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ولم تخسف أرض الوادى ، ولم يجف النيل .

واليوم أتناول القلم ، وسأظل أتناوله مادام فى الصدر نفس يتردد حتى يؤمن بنو وطنى ، أن الانجليز هم خصوم حريتنا ، وأن ضغطهم السياسى والاقتصادى هما علة انحطاط مستوى المصريين واخوانهم السودانيين ، وأن كفاحنا السياسي ينبغى أن يوجه الى محركى الخيوط ،

لا إلى الدمى والشخوص ، فلا نلق بالنا إلى الأخيرين ، إلا بقـــدر ما يكونون أدوات مسخرة للأولين .

فى الحرب العالمية الأولى ساعد المصريون الانجليز حتى كلل النصر هاماتهم ، ثم جازوهم عن تضحياتهم ، بتضحية استقلالهم ، وفى الحرب العالمية الثانية ، أمدوهم بالعون حتى عقد النصر بلوائهم . ثم تراهم ، بعد النصر ، يحاولون أن يخدعوهم عن حقهم المقدس ، ولئن صح أن التاريخ يعيد نفسه ، فمحال أن يلدغ الوطنيون من جحر الاستعمار مرتين.

إذا خدعنا الاستعمار البريطانى أول مرة كان هو الملوم ، فاذا خدعنا ثانى مرة كنا نحن الملومين . وهنا تحضرنا كلمة أبراهام لنكولن زعيم حرب التحرير فى أمريـــكا : « إنك تستطيـع أن تخدع بعض الناس ، بعض الوقت ، وكل الناس بعض الوقت ، ولكنك لا تستطيع أن تخدع كل الناس ، كل الوقت » .

إن دينا فى عنقنا أن نحيط وطننـا بسور من القلوب العامرة بالايمان الوطنى ، ولئن أكله الذئب الاستعمارى ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون .

قام تشرشل خطيبا ، وهو على رأس الوزارة البريطـانية ، إبان الحرب العالمية الثانية ، فملأ فمه بأنه ما جاء الوزير الأول ليشرف على تصفية الامبراطورية البريطانية . وتسلم العمال مقاليد الحكم ، فقال خصومهم من المحافظين : يخطىء من يظن أن العمال أقبلوا يصفون

الامبراطورية . ولقد ضرب اتلى على نغمة تشرشل إذ زعم باطلا أن على بريطانيا التزامات فى الشرق الأوسط ، وكلمة التزامات ، فى قاموس السياسة الاستعمارية ، لا تعنى إلا الاستعمار ، فى أقبح صوره ، وأسوأ معانيه .

ولعلنا لا نتجنى على الحقيقة إذا نحن نادينا بأن الروح الاستعمارية التى تتسلط على تشرشـــل وايدن . هى هى الروح الاستعمارية التى تتسلط على اتلى وبيفن ، وأن الجميع قطع متخلفة من القرن التاسع عشر ، يوم كان وليم بت يصارع مارد كورسيكا ، إذ يحول بين نابليون وبين اتخاذ مصر نقطة ارتكاز للوثبة على الهند ، وهى أثمن جوهرة فى التاج البريطانى ، وانتزاعها من الامبراطورية البريطانيـة هو بمثابة انتزاع الروح التى بين جنبيها .

ولقد كان طريق الهند مثار صراع طويل بين الانجليز والروس مخافة أن ينحدر الدب الروسى من البواغيز إلى البحر الأبيض المتوسط فيشتبك بالأسد البريطانى فى حوضه ويهدد طريق الهند .

وأشفق الانجليز أن يكون إنشاء قناة السويس مهددا لطريق الهند فوقفوا عقبة فى وجه إنشائها حيناً ، فلما أفلت الأمر من أيديهم ، وشقت القناة رغم أنوفهم ، احتال دزرائيلى للسيطرة عليها بشراء أسهمها ، ثم ما لبثت السياسة الاستعمارية أن ترقت فى العدوان ففرضت الاحتلال على وادى النيل فى عام ١٨٨٢ المشئوم .

واليوم يشهد العالم الصراع بين الدب الروسى الجريح والأسد البريطانى الهزيل والشرق الأوسط مسرح الطمع بل لقد انقسم العالم إلى معسكرين ، المعسكر السكسونى ، والمعسكر السوفيتى ، ابتغاء الاستئثار ببترول الشرق ، وموارد أمم الشرق .

وموقع مصر ومصلحتها يحددان مركزها ، فليس من الحكمة السياسية فى شىء أن تنحاز إلى جانب أحد المعسكرين وإلا أصبحت أرضها وبحرها وسماؤها ميداناً للحرب العالمية الثالثة التى يخيم شبحها فى أفق العالم من جديد .

نعم إن الحكمة السياسية تملى على مصر أن تقف موقف الحياد الدقيق من الفريقين المتنازعين ، وأن تستغل خلافاتهم لصالح القضية الوطنية ، فأما أن تلقى بجهودها فى إحدى كفتى الميزان للترجيح ، فذلك ما يجعل مصيرها فى ميزان القدر ، فوق أن التجارب قد ألقت علينا أقسى الدروس بأنا نجزى على المعونة بالعقوق ونكران الجميل ودوس الاستقلال تحت الأقدام .

وحقيقة نرجو أن تتنبه الأذهان اليها ، تلك هى أن المعسكر السكسونى يعمل جاهداً لتسخير الجامعة العربية لمناهضة روسيا بدعوى صد تيار الشيوعية الجارف . وما يبتغى ذلك المعسكر المؤلف من أمريكا وانجلترا إلا الانفراد بخيرات الأمم العربية . وإذا وضعت شعوب العرب جهودها فى إحدى كفتى الميزان اختل التوازن وهو

الضمان لحريات الشعوب المغلوبة على أمرها .

إن كل مناهضة لخصوم الاستعمار البريطانى لهو مد فى أجل ذلك الاستعمار وهو اليوم يحتضر .

وإن صحافتنا التى تجعـــل من نفسها بوقاً لترديد نغمات الدعاية السكسونية ، وهى لا تدرى ، لتلحق أكبر الأذى بقضية الاستقلال والحرية ، فالمستعمرون فى الشرسواسية ، وفى اختلافهم رحمة بالعالم .

ولسنا نجاوز الحق والواقع إذا نادينا بأن المحافظين والعمال قد صيوا فى قوالب استعمارية واحدة . فيرى العـــامل كالمحافظ أن تلك الجزيرة الصخرية التى تضن على أهلها بالرزق فلا تكاد تستوعب إلا عشرة ملايين ، على حين يزدحم فى جوانبها ستة وأربعون مليوناً ، لا بد لها من بسط سلطانها على الأرض ، ولو داست حرية الشعوب تحت قدميهـا ، غير وانية ولا مترفقة ، ولو انتزعت اللقمة من فم اليتيم والمسكين .

وإذا تكلم البريطـــانى عن التوازن الدولى ، وإذا خاض غمار الحروب ، أو سخر العالم لتحارب له ، فلكى يبعد شبح الخطر عن الامبراطورية البريطانية المتداعية من الناحيتين الحربية والاقتصادية ، وإذن فلم يكن وندل ويلكى متجنياً حين أهاب بسمع العـــالم أن الامبراطورية البريطانية هى مثار الحروب فى العالم .

على أن الانجليز ينسون أو يتناسون أن للناس عقولا . وأن

القيم الأخلاقية هى هى فى كل زمان ومكان . وأن المقاييس والموازين لا تتبدل بتبدل الأيدى التى تتداولها . وأن صيحات الانجليز التى ملأت أطباق الفضاء ، إبان الحرب العالمية الثانية ، ثورة فى وجه الطغيان النازى ، مازالت تدوى فى الآذان . وأن بسط السيادة على العالم إذا كان حراماً على الألمان ، فليس على الانجليز حلالا .

ويتطور كل شىء فى الدنيا إلا العقلية الاستعمارية لا تتطور . والدرس الدموى القاسى الذى ألقته الحرب على العالم ، لا يجد إلى تلك الرءوس المتعفنة سبيلا . فهى اليوم تحاول استرقاق الشعوب باسم الالتزامات ، كما كانت تسترقهم بالأمس تحت ستـــار الدعوى الكاذبة بنشر ألوية الحضارة فى ربوعهم . ويشهد الله والهند ومصر أنها لا تنشر إلا جراثيم الفقر والمرض والجهل .

لم يخجل أحد غلاة المستعمرين من الانجليز أن يقول فى معرض الكلام عن الأسلوب الذى ينبغى أن يخضعوا به مستعمراتهم : « يجب أن لا ندع الثمرة تنضج ، لأنها إذا نضجت فلا تلبث أن تنفصل عن الشجرة لا محالة » . والنزعة الاجرامية التى تترجم عنها تلك العبارة المجرمة هى أنه يجب أن تتردى الشعوب التى يوقعها سوء الطالع بين براثن استعمارنا فى هوة الفقر والمرض والجهل حتى لا تفلت الفريسة من مخالبنا !

لقد ظل كابوس الاستعمار البريطانى جاثماً على صدر مصر نيفاً

وستين عاما . فمستوى المعيشة فيها لا يعادله فى الانحطاط إلا مستوى المعيشة فى الهند . والاحصاءات عن الفقر والمرض والجهل ، فى البلدين مثيرة مفزعة حتى للضمائر المتحجرة . فقد كان متوسط دخل الفرد فى اليونان ، قبل الحرب ، تسعة أضعاف متوسط دخل الفرد فى مصر . ونسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة لا تكاد تتجاوز ١٢ ٪ . والأمراض المتوطنة تفتك بهذا الشعب المسكين فتكا ذريعاً على صورة تدعو إلى التساؤل ، كيف بقى إلى اليوم على قيد الحياة فلم ينقرض ؟

فلا عجب إذا استماتت الوطنيون فى المطالبـــة بجلاء آخر جندى انجليزى عن وادى النيل ، فان لتلك الاستماتة دوافع روحية ومادية ، إذ يبتغون زحزحة الكابوس الجاثم على صدر استقلالهم القومى ، وغسل العار اللاصق بكرامتهم الوطنية ، وإزالة العقبة الكئود فى طريق رخائهم المادى .

وإذا كانت انجلترا ، باعتراف مستر اتلى نفسه ، قد خرجت من الحرب وهى مثقلة بعوامل الفقر . وإذا كان المسئولون من الانجليز يصارحون بأنها لا تستطيع الوفاء بديونها ، وأن ليس لديها فى الخارج من الأرصدة ما تستطيع أن تواجه به مطالب المواد الغذائية ، والمواد الأولية ، فمن حق المصريين أن يخافوا أن تحاول الاثراء على حسابهم. ومن أقدس واجبات المرء ، نحو نفسه ووطنه ، أن يعمل جاهداً على إبعاد الطفيليات التى تعيش على امتصاص دمه .

تعمل السياسة الاستعمارية بكافة الوسائل على الحيلولة بيننا وبين التعامل مع غير الانجليز ، فتحتكر أسواقنا ، وتستأثر بتجارتنا ، وتتحكم فى مصايرنا المالية والاقتصادية ، فتضرب علينا الذلة المالية ، والمسكنة الاقتصادية .

كان الانجليز يقولون فى الماضى : لقد أعطينا المصريين الماء والعدالة . واليوم نراهم يحاولون فصل السودان عن مصر ، أى يحاولون حرماننا من مصدر حياتنا . فأما مقياس العدالة عندهم ففى حرمان الشعوب من حقوقها فى الحرية والحياة .

لئن كان المنتصرون يفكرون فى تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ فليعلموا أنهم يلقون بذور حرب عالمية ثالثة . فلا فرق بين سياسة القفاز الحريرى ، والقبضة الحديدية . والحر لا يكون عبداً ، ولا يطمئن إلى العبودية بحال سواء أكانت على يد الألمانى أو الانجليزى أو الأمريكى أو الروسى أو كائن من كان .

ونحب أن نصارح الانجليز بأن مستر تشرشل حين أخذوا عليه وضع يده فى أيدى الروس والحرب إلى جانبهم قال قولته المشهورة: إنى أتحالف مع الشيطان ، فى سبيل القضاء على هتلر . فلا تثريب على المصريين ، مادام الانجليز يماطلون فى الجلاء عن وادى النيل أن يستنصروا بالأمريكيين والروسيين للاعتراف بمصر دولة على الحياد الدائم أسوة بسويسرا على أن يكون هذا الحياد مضموناً من جميع الدول التى لها مصالح فيها .

فأما اتخاذ نقط استراتيجية فى الأراضى المصرية فيتعارض مع استقلال مصر ولن يرضى به مصرى تجرى فى عروقه الدماء المصرية.

يقول الانجليز فى بعض أمثالهم : «السياسة لعبة قذرة ، وكل لعبة يجب أن تلعب حسب قواعدها وأصولها » . وتعتنق السياسة الاستعمارية مذهب مكيافيللى القائل بأن الغاية تبرر الوسائل . وتدين بمبدأ : فرق تسد ؛ بل لعل صاحب كتاب « الأمير » لو بعث اليوم من قبره لتتلمذ على بعض غلاة الاستعمار من الانجليز .

على أن السياسة البريطانية قد افتضحت لدى المصريين فلا خوف بعد اليوم أن يخدعوا بها .

ولا يداخلنا شك فى أن موقف السياسة الاستعمارية قد أبرأ بعض أحزابنا من مرض المفاوضة وحملهم على أن يخرجوا بالمسألة المصرية من المضيق الاستعمارى إلى رحاب الدولية .

وما من شك فى أننا نستطيع أن نستثير الضمير العالمى إلى جانب وادى النيل إذا أحسنا الدعوة والدعاية وكشفنا عن مبلغ الارتباط بين حيدة قناة السويس والسلام العالمى .

على أنه ينبغى لنا أن لا نتعلق بالأوهام فنعتقد أن مجرد طرح دعوانا على المنظمات الدولية يضمن لها الكسب لا محالة . فالعالم لم يبرأ بعد من حمى المطامع . والضمير العالمى لم يستيقظ بعد اليقظة

التامة . والأطماع الجامحة تطغى على المصالح الحقيقية . وتبادل المصلحة يدفع الساسة إلى غير لائق بالحق والعدل . فلكى نواجه الحقائق ، وندرك الأمور على وجهها الصحيح ، ينبغى لنا أن نؤمن بأن عرض مسألة وادى النيل على الهيئات الدولية لا يعفينا من الكفاح بحال، بل يجب أن نفهم أن ذلك العرض لا يعدو أن يكون مرحلة ، من مراحل الكفاح .

وحشية الاستعمار البريطـــانى

فى يوم الخميس ٢١ فبراير من عام ١٩٤٦ خرج الشعب المصرى الأعزل إلا من قوة الحق ، وقوة اليقين ، بجميع هيئاته وطبقاته ، فى مظاهرات سلمية بريئة ، يهتف بالجلاء ، ووحدة وادى النيل ، ويعلن إرادته ، فى وجه العالم بأسره ، بأن يعيش حراً ، أو يموت كريماً .

على أن الحق الأعزل ، يخيف القوة المسلحة ، والمدين المماطل ، يهاب الدائن المتمسك بحقه . فلم يكن عجباً أن تطيش من الانجليز المستعمرين أحلامهم وسهامهم ، فيكون موقفهم من المصريين مدعاة للرثاء والازدراء ، ويكون موقف المصريين ، من جلاديهم ، مثار الاكبار والاعجاب.

اقتحمت سيارات المستعمرين المتوحشين ، صفوف الوطنيين الأحرار ، فاستشهدت طائفة من الأطهـــار الأبرار ، فلم يزدنا المستعمرون علماً بأن قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة ، وإنما زادوا نار الوطنية المصرية تأججاً واشتعالا .

وأمعن الذين تحجرت قلوبهم وضمائرهم فى الوحشيـة فسلطوا نيران مدافعهم الرشاشة تحصد صفوف العزل الأبرياء حصداً ، وأوغل غلاظ الأكباد الذين يحملون فى صدورهم حجارة لا قلوباً . فمزقوا صدور الهاتفين الأحرار برصـــاص بنادقهم . وما كان للاستعمار

البريطانى ، بتلك المآسى والمخازى ، والبربرية والهمجية ، أن يقتل الحركة الوطنية ، أو يذبح الروح القومية ، أو يخمد جذوة المصرية ، ولكنه يعمد إلى الانتحار ، ويحفر قبره بيـــده ، ولا يحفر القبور للشهداء الخالدين .

لقد شهد العالم ، وسجل التاريخ ، أن المستعمرين لا تجد الرحمة إلى قلوبهم سبيلا . وإذا كان التاريخ يعيد نفسه ، فاليوم يفتتح الانجليز مع المصريين صفحة دامية من تلكم الصفحات الحمراء القانية التى احمرت عيون الناظرين اليها فى عام ١٩١٩ جزاء وفاقاً لأولئك الذين حموا تقهقرهم فجنبوهم شر الهزيمة المنكرة . وتلك شيمة الاستعمار البريطانى ، أسـد على العزل من السلاح ، وفى الحروب نعامة ، وفى الهيجاء ما جرب الاستعمار بخته ، ولكن فى الهزيمة كالغزال .

وفى اليوم الدامى المشهود ، يوم ٤ مارس من نفس العـــام ، تكررت تلك المأساة الداميـة على مسرح الاسكندرية ، فلطخ الاستعمار البريطانى عاصمة القطر الثانية بالدماء ، ولطخ وجهه بالعار ، وخطت الوطنية المصرية ، فى كتاب الجهاد القومى ، أجل الصفحات وأبهاها ، وسود الاستعمار صفحات مجللة بالخزى والخجل .

وفى الفترة بين ١٩١٩ و١٩٤٦ لم تتغير نفسية الاستعمار البريطانى وروحه ، فى خنق ضحاياه ، والاجهاز على حرياتهم ، ولم تتبدل أساليبه ووسائله ، فى انتزاع أرزاق فرائسه . ففى سنة ١٩٤٦ تمشى سيارات

نبربرين على الأشلاء ، وتخوض فى الدماء . وفى سنة ١٩١٩ يهيب
ق من أبواق الاستعمار البغيض ، هو صحيفة الاجبشيان ميل ، بقومه
ستعمرين . أن يبيدوا المصريين المتظاهرين فى الاسكندرية بالدبابات
تباد الحشرات اللداغة ، وإذ ذاك غلا الدم فى عروقى ، كما يغلى اليوم ،
نباً للكرامة المصرية ، وضناً بالدماء الطاهرة الزكية ، فنـــاديت
مى أن لا تخـافوا إن الله معنـا . وبالأمس ناديتهم — أن لا تهنوا
لا تحزنوا ، فالله معـــنا ، والمستعمر ، بوحشيته ، حرب على
سه ، لا علينا .

٣١ مارس من عام ١٩٤٧ يوم تطهير المدن المصرية من أدناس
رجاس جنود المتوحشين ! علم الله ، لقد تنازعتنى فى ذلك اليوم
امل مختلفة ، أأفرح ملء قلبى وعينى أم أحزن . فأما الفرح فلأنى
أرى تلك الوجوه الحمر التى تعب من دم الأبرياء ، وأما الاشفاق
ن بقاءهم يبقى شعلة الوطنية مضطرمة . على أنى لست أخشى من
خدير يصيب الوطنيـــة المصرية التى أقسمت قسما حقاً ، وستبر
ها إن شاء الله ، أن لا تكف عن الجهاد حتى يبرأ الوادى ، جنوبه
ماله ، من كل أثر للمستعمرين .

وفى سنة ١٩١٩ لطخ المستعمرون صحيفة استعمارهم بالدماء ،
كانوا السفاكين السفاحين ، والذين أسالوا الدماء ، وأزهقوا
رواح ، فى القاهرة والاسكندرية والعزيزية والبدرشين وغيرها

وغيرها من مدن القطر الآمنة المطمئنة . فما أخمدوا شعلة الوطنية ، بل زادوها ضراما. وفى سنة ١٩٤٦ أراقوا الدماء وانتزعوا الأرواح ، فلم يقتلوا الحركة الاستقلالية ولكنما انتحروا بأيديهم . وفى سنة ١٩٤٧ خيلوا للمصريين بالجلاء الزائف فما خدعوا الوطنيين ، ولكن كانوا أنفسهم يخدعون .

ويسألنى مواطنى عن بربرية الاستعمار البريطانى فأقدم لهم الشواهد الدامية ، على سبيل المثال ، لا سبيل الحصر . ففى عام ١٩١٩ ، وعلى مسرح قرية ميت القرشى من أعمال مركز ميت غمر مثل الاستعمار مأساة دامية إذ خرج صبية ينادون نداءات وطنية . وإذ هم يتظاهرون أقبل من الزقازيق قطار مسلح يحمل بعض الجنود الذين نيط بهم إخماد الحركة . وما أن أبصروا الغلمان الهاتفين حتى أوقفوا القطار ، ثم صوبوا البنادق ، وشرعوا الأسنة ، فهلع الصبية خوفاً وجزعاً ، وانخلعت قلوبهم الغضة البريئة من هول ما رأوا ، فهرعوا إلى مزرعة قمح قريبة وهم يحسبون لغرارتهم أنها تعصمهم من وحشية الجند ، إذ تحجبهم عن أبصارهم ، وظن الصغار لسذاجتهم أن رجولة الجنود تأبى عليهم أن ينكلوا بالصغار على أفظع وأبشع صور التنكيل ، ويمثلوا بالصبية على صورة لم يرو لها التاريخ مثيلا ، وأن من ينازل الرجال لا ينازل الأطفال ، ومن يصاول الأبطال لا يصاول الصغار . وخاب ظن الصغار الأبرياء فأمعن الكبار الجبناء فيهم تقتيلا وتنكيلا .

وكأنما لم يكن المراد القتل بل الإفحاش فى القتل . فلقد أثبت التشريح إذ ذاك أن جثث بعض الأطفال قد مزقتها اثنتى عشرة رصاصة . إذ كان الوحش ينقض على فريسته فلا يشبع شهوة القتل فى نفسه الا أن يفرغ فى صدر الفريسة عشر رصاصات أو تزيد . ولقد أجهزوا على أربعة وعشرين غلاما . وتناقل الناس إذ ذاك أن آخر كلمة كانت على بعض تلك الأفواه الصغيرة البريئة : يحيا الوطن ! كما تناقل الناس إنه فى يوم ٢١ فبراير من عام ١٩٤٦ كان وطنى من المصابين برصاص المستعمرين الغادرين يلفظ النفس الأخير ، و يلفظ معه كلمته الأخيرة : تحيا مصر !

وفى ميت القرشى أصابت رصاصة طائشة عروساً كانت تتهيأ للزفاف فآمنا إذ ذاك بأن الحرية عروس لا تزف إلى الشعوب إلا وحناؤها الدم .

ولسنا والله ندرى كيف يمعن المستعمرون فى تقتيل الوادعين المسالمين من المصريين ، فيعمون عن تلك الحقيقة الخالدة ألا وهى أن من يعمل للحرية أو ضدها يخدمها على السواء ، وأن شجرة الحرية لا تروى إلا بدماء الأبرياء ، من الضحايا والشهداء .

ويا أيها الوطنيون إن شئتم مزيداً من الأدلة على همجية الاستعمار البريطانى فاذكروا مأساة دنشواى الدامية إذ بطش الأقوياء بالضعفاء على صورة دلت على أن قلوب المستعمرين من الانجليز قد أقفرت

من كل أثر للرحمة . فلقد نصب المستعمرون المشانق فى ساحة القرية. وأعدوا للجلد معداته وأدواته . وأقبل الجلادون يتهادون . وسيق البائسون إلى العذاب ، بمرأى ومسمع من أهل القرية ، وبمشهد من آباء المحكوم عليهم وأبنائهم وزوجاتهم . وكانوا يبدأون باعدام رجل بمشهد ومسمع من أولئك الذين ينتظرون سياط الجلادين تمزق ظهورهم تمزيقاً . وكانوا يلهبون بالسياط جسوم المحكوم عليهم بالجلد ، بمرأى ومسمع من أولئك الذين يرقبون بين لحظة وأخرى أن تعلق رءوسهم فى المشانق . وكان بكاء الأطفال ، وولولة النساء ، وانتحاب الرجال ، يختلط بأصوات الذين يعدمون ، وصيحات وصرخات الذين يجلدون ، فتشق أجواز الفضاء ، وتبلغ السماء ، فتشكو لعدل الله ، ظلم الانسان لأخيه الانسان ، وتستنزل اللعنة على رءوس المستعمرين ، وتستدر النقمة على المتكبرين المتجبرين ، وإن ربك للمستعمرين بالمرصاد !

ويشهد الله وهو أعدل الشاهدين ، ويقول التاريخ وهو أصدق القائلين ، أن كتشنر وهو قائد حملة السودان ، كان يأمر رجاله بأن لا يأخذوا أسرى من الدراويش ، وأن يذبحوا فى غير شفقة ولا رحمة ، جميع المهديين الذين يقعون فى قبضة أيديهم .

فلعل السير عبد الرحمن المهدى يذكر ذلك ولا ينساه .

ولما تم الاستيلاء على الخرطوم ، انتهك قبر المهدى ، وفصل

الرأس عن الجسد ، ثم أعطى الرأس لحفيد غوردون فاحتفظ به حيناً من الدهر كاحدى العاديات . واتخذ الضباط البريطانيون من أظافر الخليفة المهدى تمائم بها يتبركون ، وحمائل بها يتزينون ، فلما أثيرت تلك المآسى والمخازى فى مجلس العموم البريطانى لم يخجل بلفور من أن يملأ فمه بأن كتشنر لم يعمل إلا بوحى ضميره ، كأن نبش القبور من وحى الضمير ، ولم يأمر إلا بما رآه وفقاً لصالح البلد الذى خدمه فى أمانة وإخلاص ، كأن الاجهاز على الجرحى من الأمانة والاخلاص . ولم يتلجلج بلفور أو يتلعثم ، وهو يعذب الحقائق والوقائع ، ليبرر تعذيب بنى آدم من لحم ودم ، وإنما علا وجهه شىء من حمرة الخجل ، حين قال فى صوت خافت : « ربما لم تكن هذه الأعمال من حسن الذوق فى شىء ، ولم تراع فيها آداب السلوك ! » وكذلك لا يعادل تجرد المستعمرين من الرحمة والانسانية ، إلا تجرد ساستهم من الضمير .

فعسى أن حاضر الانجليز مع السير عبد الرحمن المهدى لا ينسيه ماضيهم مع أبيه ! ولكن هيهات أن لا يخطف بريق الذهب الأبصار فيعميها عن المخازى والمآسى .

وفى حرب البوير كان الانجليز يستعملون رصاص « دم دم » وكان كل جرح تحدثه تلك القذيفة الجهنمية قاتلاً . وكان الانجليز يبررون وحشيتهم بأن الرصاص العادى لا يحميهم من بطش البوير .

وكانوا إبان الحرب يجمعون الأطفال والنساء والشيوخ فى الخيـــام ثم يضرمون النيران فيها ليحرقوهم أحياء !

وفى أواسط أفريقيا ، طلب ضابط بريطانى أن يشهد طعام الذين يأكلون لحوم البشر ، فسيقت فتاة صغيرة ، فذبحت ، ثم بقر بطنها ، تحت سمع الضابط الباسل وبصره ، دون أن تتحرك فى قلبه عاطفة الرحمة والشفقة فيتحرك لانتشال الفتاة الضحية من هول المصير !

وفى جزيرة جاميـكا ، كانت إذا بدرت من الزنوج بادرة ثورة راح الانجليز يصطادون الانسان كما يصطادون الحيوان .

وفى استراليا وغيرها من الجزر كان الانجليز يتدربون على الرماية فى الهنود الحمر .

وإبان الثورة المصرية عام ١٩١٩ يروى الرواة الثقاة الذين لايرقى الشك إلى صـدق أقوالهم أن عسكر الانجليز كانوا يطلون من نوافذ القطارات الحربية ، فيجربون الرماية بالبنادق فى الانسان والحيوان .

وفى عام ١٨٨٢ ، حين ترامت إلى مجلس العموم البريطانى أنبـــاء ضرب الاسكندرية بالقنابل ، كبر الأعضاء لأنباء الشؤم والعدوان وهللوا ، واستخفهم الطرب حتى لـكأنهم أطفال يشهدون ألعاب السهام النارية ، وكأن مدينة عامرة تضم بين جوانحها مائتى ألف نسمة أو يزيد ، ينصب على رءوسهم الحديد والنار ، لاتستحق كلمة رثاء ، أوعبارة إشفاق ، من جماعة الانسانيين الذين يحملون للشعوب رسالة الحضارة !

لقد أقفرت قلوب الانجليز من الرحمة ، فى كل زمان ومكان . فى كندا ، والولايات المتحدة ، والهند ، وجنوب أفريقيا ، وارلندا ، ومصر ، وفلسطين ، وفى كل بلد نكب باستعمارهم المشئوم . فاما الابادة وإما الاستغلال . أبادوا فريقاً من الهنود الحمر ، واستغلوا الهنود والمصريين فى أبشع صور الاستغلال ، وساموهم سوء الخسف والنكال . وأذاقوا الارلنديين ضروب البطش وألوان التنكيل .

وإن الناظر الى تاريخ نكبة فلسطين بهم لتحمر عيناه من هول مناظر الدماء التى أهرقوها للعرب فى سبيل إنشاء وطن قومى لليهود تنفيذاً لوعد بلفور المشئوم فى عام ١٩١٧ . وتراهم أسوداً على العرب ، جبناء أنذال أمام اليهود الذين ينكلون بهم فى شر صور التنكيل إلى حد أن يخطفوا رجالهم ، ويجلدوا بالسياط ضباطهم ! !

وكما أقفرت قلوب المستعمرين من شعور الرحمة ، كذلك خوت نفوسهم من شعور العدالة حيال الذين يستضعفون جانبهم . فقد اجترأوا على تحميلنا مسئولية حوادث ٢١ فبراير و ٤ مارس الدامية ، وليس فى أيدى أحرارنا قطرة دم ، وأيدى رجالهم تقطر من دم الأحرار .

وليس أدل على انعدام شعور العدالة فى نفوس المستعمرين أنهم يكيلون بكيلين ويزنون بميزانين ، أنهم يطالبون المصريين بالتعويض ويجمدون أمام أعمال التدمير والتخريب والتقتيل من جانب الارهابيين من اليهود .

على أن مصر كانت دوماً تقابل النار بنور اليقين ، والحديد بقوة الإيمان ، ولسوف ينتصر حقها على باطل المستعمرين ولو بعد حين .

بريطانيا النازية

لما عقد لواء النصر للحلفاء فى الحرب العالمية الأولى ، قال اللورد نورثكليف إن بريطانيا كسبت الحرب بقنابل الورق مشيراً بذلك إلى أثر الدعاية فى كسب الحروب .

ولعل اللورد بيفربروك لا يعدو الحقيقة ، إذا هو نادى اليوم ، بعد أن خرجت انجلترا من الحرب العالمية الثانية ظافرة ، بأن قنابل الورق هى التى قضت على ألمانيا النازية .

وفى الحق ، فقد أعلنت بريطانيا حرب الدعاية على ألمانيا ، فاستطاعت أن تسوق لقتالها نصف الكرة الغربى ، وأن تحشد لملاقاتها أربعاً وخمسين دولة ، وبعبارة أخرى استطاعت أن تعبىء لمهاجمتها أربعة أخماس قوى العالم مجتمعة .

وما كان لانجلترا أن توفق إلى تأليب العالم على ألمانيا لولا حرب الدعاية التى شنتها عليها ، فصورتها فى صورة سوداء قاتمة ، تدين بمبدأ الاعتزاز بالقوة ، والاستهتار بالضعف ، فتبغى بسط سلطانها على العالم ، وتعتنق مذهب العنصرية ، فتناصب الديمقراطية العداء ، وتدوس حريات الشعوب الصغيرة تحت الأقدام .

واليوم تقوم بريطانيا النازية ، على أنقاض ألمانيا النازية ، فتتورط فيما اتهمت به فريستها ، فتعمل على فرض سيادتها على العالم ، وتغرق

إلى أذنيها فيما أخذت به ضحيتها ، فتنزع إلى العنصرية ، وتنظر إلى الأمم المستضعفة ، من غير جنسها ولونها ، نظرة ازدراء ، فتهضم حقوقها ، وتنتهك حرياتها ، غير وانية ولا مترفقة .

وما نشك فى أن بريطانيا كانت تتهم ألمانيا بما هو فيها . وسواء أكان الداء قديما ، أم كان طارئا ، فالذى لا يمارى فيه انسان ، له عينان للنظر ، وأذنان للسمع ، هو أن بريطانيا اليوم تعتنق مبادىء المانيا النازية ، وتجرى على أساليبها ، فليس من التجنى فى شىء أن نسميها بريطانيا النازية .

وبالأمس كانت الدبلوماسية البريطانية ، لا تتورع عن أن توسع حدود الامبراطورية ، بإضافة حلقات جديدة ، فى سلسلة ضحاياها ، بقوة الخداع ، والتجرد من الضمير تارة ، وقعقعة السلاح إن اقتضى الأمر تارة أخرى ، واليوم لا تتعفف تلك الدبلوماسية اللاضميرية عن الالتجاء إلى الخداع حيناً ، والقوة حيناً آخر ، لتحقيق أحلامها فى السيادة العالمية .

أرأيت إلى تشرشل وايدن ، كيف يصفقان إلى أتلى وبيفن ، كلما شددا قبضتها على الأمبراطورية البريطانية ، وأضافا حلقات جديدة إلى سلاسل الاعتداءات القديمة ، ولو أوشك صفو الأمن الدولى أن يكدر ، والسلام العالمى أن يهدد .

ثم أرأيت إلى السياسى العجوز تشرشل ، كيف هرول إلى أمريكا ،

وهو يرجو أن تتضافر جهودها ، مع جهود انجلترا ، لتقيما الحواجز ، فى الشرق والغرب ، فى وجه التيار الشيوعى ، وتضربا نطاقاً حديدياً حول الاتحاد السوفيتى ؟ وهل ذلك إلا لأن روسيا تنصب اليـــوم نفسها مدافعة عن حقوق وحريات الشعوب الصغيرة ، وتخيل للعالم أنها تقف فى وجه الطغيان البريطانى ، وقد كدت أقول الطغيان النازى؟

وإذا استشعرت انجلترا من نفسهـا العجز عن الصمود فى وجه الموجة السوفيتية ، توارت بالحجاب ، وتحصن جون بول ، خلف ظهر العم سام ، وتبدت أمريكا على المسرح الدولى ، سافرة غير مقنعة ، تبتغى صـــد التيار السوفيتى ، فتجاهر بتقديم المعونة العسكرية والاقتصادية لتركيا واليونان ، فتصوغ حلقتين فى سلسلة التطويق ، لروسيا السوفيتية .

وانجلترا ضعيفة ولـكنها تتبدى فى مظاهـر القوة . ولقد بلغ من إحساس أمريكا بضعف انجلترا أن نصح شيخ أمريكى بأن لا يتورط الأمريكيون فى مد يد المعونة للأسد البريطانى الهزيل مخافة أن يجرهم إلى الحروب الدموية . واقترح شيخ أمريكى آخر أن تنضم انجلترا إلى أمريكا ، وتصبح ولاية من ولاياتها ، يمثلها نائبان بريطانيان . وهـل من شك فى أن انجلترا اليوم ،فى الميدان السياسى العالمى ، تمشى ذيلا من ذيول أمريكا ؟

وفى شريعة الأرض أم فى شريعة السماء ، يكون احتلال اليونان ،

وفلسطين ، وجنوب أفريقيا ، ومصر ، والهند ، واجتياح أندونيسيا ، خلالا على البريطانيين ، ويكون احتلال النمسا وتشيكوسلوفاكيا ، قبل الحرب ، وغيرهما من أمم الغرب ، إبان الحرب ، حراماً على الألمان ؟ إذا لم يكن الكيل بمكيالين ، والوزن بميزانين ، فالعدالة تقضى بأن يثور الضمير العالمى فى وجه الظلم البريطانى اليوم ، كما ثار فى وجه الظلم النازى بالأمس . فالنازية هى النازية . وإن تبدت فى ثياب سكسونية .

وابتدعوا للعالم اليوم أساليب طريفة للغصب والعدوان . ففريق يعمد إلى السطو على الشعوب الآمنة المطمئنة تحت ستار الدعوى بأنه يرمى إلى تأمين حدود بلاده . وفريق يهتك عرض الحرية ، ويسحق الحقوق تحت قدميه ، ثم يعذب الحقيقة . فيزعم أنه يلتمس نقطا استراتيجية لا أكثر ولا أقل .

فماذا أهاب العالم بساسة آخر الزمن ، وأين وثيقة الأطلسى ، هل رسبت فى قاع المحيط ؟ وأين الحريات الأربع ، هل تبخرت فى الهواء ؟ وأين عهود المؤتمرات ، ومواثيق سان فرنسيسكو ، هل أضحت قصاصة ورق ؟ وأين هيئة الأمم المتحدة ، هل قبرت إلى غير بعث ؟ وأين مجلس الأمن الذى تتزلزل لقواته الأرض ، وتخشع البحار ، ويضطرب الجو ، هل مات وليداً ، أم هل تبخرت قواته فى الهواء ، وبات وجوده فى ذمة التاريخ ؟ وهل يشيع اليوم إلى مقرها الأخير

هيئة الأمم المتحدة ، كما شيع أختاً لها من قبل ، هى عصبة الأمم البـــائدة ؟

لئن تساءل النـاس عـلى تلك الصورة ، خرست ألسنة الساسـة ، وابتلعت ضمائرهم العهود والمواثيق ، كما تبتلع حقوق الشعوب وحرياتها.

وإن تعجب فعجب لصحيفـة بريطـانية ، أو بوق من أبواق الاستعمار ، ينادى بأن العلاقات بين الاتحـاد السوفيتى والاسلام مسألة تزداد خطورة ، وأن الاسلام لن يتجـه إلى بريطانيا ، إذ أن الاسلام قد اتجه الآن إلى الاتحاد السوفيتى بصفته عدواً كبيراً للنظام الامبراطورى البريطانى . ونحب أن نصارح ، بداءة ذى بدء ، ذلك البوق الاستعمارى الضال المضلل ، بأن الحركات الوطنية لاتصطبغ بالصبغة الدينية ، وإنما هى حركات استقلالية ترمى الى تحرير الشعوب من ربقة الاستعمار البريطانى ، ثم نود إذا هالته تلك النزعات الحرة البريئـة ، أن ينحى على سياسة بريطانيا النـازية باللائمة ، فلا تزال الى اليوم ، تدوى فى سمع العالم ، صيحـة تشرشل إبان الحرب ، إذ قال لخصومه الذين يلومونه على وضع يده فى أيدى الروس ، مع الفوارق البعيدة فى المبادىء والنظم ، إنى أوثر التحالف مع الشيطان على انتصار المانيـا النازية .

فلا تثريب اليوم على الشعوب التى تبغى تحطيم قيود الاستعباد ،

وكسر سلاسل الاستبداد ، أن تستعين بكافة القوى التى تقف فى وجه الطغيـــان .

ولا جنـاح على مصر أن تستصرخ الضمير العـالمى وتفزع الى أمريكا وروسيا ، وتهرع إلى المنظمات الدولية فى سبيل تحرير النيل .

إن الاحتلال البريطانى يهدد السلام العالمى تهديداً خطيراً فلا إثم على مصر أن تستنصر بكل دولة تخاصم انجلترا ، بل الاثم كل الاثم ، والاجرام الوطنى غاية الاجرام ، أن نضيع الفرص السانحة بالمفاوضات والمســاومات .

وكما تبغى بريطانيا النازية فرض سيطرتها على العالم ، فانها تعتنق مذهب العنصرية . فتحتقر الشعوب من غير جنسها ولونها ، وتدوس حقوقها وحرياتها تحت قدميها . و لئن شئت أمثلة حية فأمامك الأمثلة فى مصر والسودان والهند وجنوب أفريقيا . أرأيت كيف يستهينون بحقوق المصريين وحرياتهم ؛ كما يستهترون بحقوق الهنود وحرياتهم وقد جادوا لهم بالمعونة فى الحرب ، فضنوا عليهم بالاعتراف بالحقوق والحريات بعد النصر ؟

يقول الكاتب الفرنسى « اميل بوتمى » : « إن السياسة البريطانية لاتصطنع الشفقة حيال الضعفاء ، وتغالى فى القسوة عليهم ، وتتجرد من كل أثر للعـدل وكرم النفس قبلهم . وبينا تنكمش تلك السيـاسة وتتضاءل أمام الأقوياء ، إذا بها تطغى ، وتلبس جلد النمر للضعفاء .

كأنما الأمانة والصدق والانسانية والكرم حيال الضعفاء إنما هى حقائق وراء شاطىء المانش البريطانى ، ولكنها أباطيل لدى شاطئه الآخر . وإن تلك الدبلوماسية المتجردة من الضمير لم يستنكرها الشعب البريطانى من بلمرستون بل مجدها فى شخصه » .

والآن ندع الكلمة لمستر ونستون تشرشل ، قال فى كتابه «حرب النهر» عن حملة السودان ورفع العلم على الخرطوم : « لقد أرسلت فصائل من الضباط والجند ، من كافة الفرق ، ما بين بريطانية ومصرية ، فى قوارب المدفعية ، عبر النيل ، لتشترك فى الاحتفال بذكرى غوردون ، وتشهد رفع العلم البريطانى على أطلال الخرطوم . ثم أمر القائد المظفر ، يحيط به الجنود الذين قادهم إلى مواطن النصر أن ترفع الأعلام . ثم أدى الضباط والجنود التحية العسكريه . وعزفت الموسيقى النشيد المصرى والبريطانى . ثم هتف السردار بحياة جلالة الملكة ثلاثا . ثم رتلت الأناشيد الدينية ، وخاصة الأنشودة الدينية التى كانت حبيبة إلى قلب غوردون . وعلى تلك الصورة تم الاحتفال وقد كان خليقاً أن يحول دون إقامته وجود تسعة آلاف جثة قتيل تغطى سهول أم درمان فضلا عن آلاف جثث أخرى مبعثرة فى جوانب الصحراء ، أو جرحى يزحفون إلى النهر التماساً للماء » .

ونترك للكاتب الانجليزى « هوبسون » التعقيب على الوصف الذى أورده تشرشل لتكون الصورة كاملة بارزة فى تمثيل الانسانية

السكسونية . قال هوبسون ، إتماماً لما أغفله تشرشل : « بينما الكاتب لتلك العبارة يغفل الخاتمة ، كان اصطياد الجرحى الزاحفين على بطونهم التماساً للماء يجرى بأيدى الجنود الذين هم تحت قيادة البريطانيين ، وبذلك تكمل الصورة بما فيها من دواعى الدهشة والعجب ، وامتزاج بين الراية البريطانية ، والأنشودة الدينية . والثأر لغوردون » !

ألا ليت الانفصاليين ، وعلى رأسهم حزب الأمة . وفى طليعتهم السير عبد الرحمن المهدى ، يسمعون هذا الوصف الدامى ويعونه ، واذا سمعوه ينتفعون به ، وخاصة إنه منحدر من قلمى بريطانيين إسماً ومعنى ، ولحماً ودماً ، ونخاعاً وعظاماً ، ألا وهما ونستون تشرشل بطل وثيقة الاطلسى وحرب تحرير الشعوب المغلوبة على أمرها . وهوبسون الكاتب الانجليزى المنصف ، وكما تنبت الواحة فى الصحراء ، كذلك ينبت بعض المنصفين فى الجزيرة البريطانية .

وهل اجتياح صفوف المتظاهرين من المصريين ، وتمزيق صدور المسالمين ، وإزهاق الارواح البريئة تحت السيارات المتجنية ، واقتحام القرى الآمنة المطمئنة ، وترويع الأطفال والنساء والشيوخ من أهلها ، وتقتيل رجالها ، إلا العنصرية الذميمة فى أقبح صورها ، وأسوأ معانيها؟

والآن تتجلى رسالة الوطنية المصرية فى مكافحة بريطانيا النازية . فلا مندوحة عن تعبئة الجهود القومية للنضال ، وليس يكفى إعلان الجهاد ، بل لابد من تنظيم الجهاد . ولا تكفى المناداة بمقاطعة كل ماهو انجليزى ، بل لابد من وضع قواعد المقاطعة ورسم وسائلها .

— ٢٩ —

لقد بات ديناً فى أعناق أبناء النيل من الجنوب إلى الشمال أن يعلنوا حرب الدعاية على بريطانيا النازية ، فى الداخل والخارج ، فيبثوا الدعاة فى جوانب وادى النيل . وينفذوا الرسل إلى كل مكان فى الخارج . ويبعثوا بالدعاة إلى الهند والبلاد القريبة ، وإلى أمريكا ، وروسيا ، وبريطانيا نفسها وبذلك يستطيعون أن يؤلبوا العالم على بريطانيا النازية ، كما ألبت هى العالم على المانيا النازية من قبل .

السياسة البريطانية بين حربين

كسبت انجلترا الحرب العالمية الأولى بعد تضحيات هائلة فى الأنفس والأموال. ويبدو أنها كسبت الحرب العالمية الثانية بعد تضحيات أشد هولا فى الأموال والأرواح . ولكن السياسة البريطانية ، برغم تلك الخسائر المادية والمعنوية ، لم تتغير روحا وغاية ، كأنما هى بحاجة إلى درس دموى ثالث . يعلمها أن تفعل ما تقول ، أو ينقذ العالم من دسائسها ، وإثارتها للفتن والحروب .

ولئن خيل لبعض الناس أن السياسة البريطانية قد دخل عليها شىء من التغيير بسبب تقلد العمال زمام الحكم ، فالتغيير فى الصورة دون الجوهر ، وبعبارة أوضح وأصرح ، فالتغيير فى الوسائل دون الغايات ، ولقد أبدت الأيام للعالم ما كان يجهل من أن جماعة العمال من غلاة الاستعمار كطائفة المحافظين .

وفى الحق أن الانجليز سياسة مرسومة ، كرت دهور ، ومرت أجيال ، ولم يلحقها شىء من التبدل أو التحوير ، سواء أحملت طابع الأحرار ، أم المحافظين ، أم العمال . فقد كان غلادستون على رأس وزارة الأحرار ، فوقع فى عهده من التوسع الاستعمارى مالا يكاد يقاس به ما ضم إلى أملاك التاج البريطانى فى عهد دزرائيلى وهو المعروف بأنه من دهاقنة الاستعمار .

وعسى أن لا يغيب عن ذاكرتنا أن ماكدونالد ، وقد كان زعيم العمال ، قال وهو فى بيت سعد ، إنه كفيل بحل المسألة المصرية فى الفترة التى يتناول فيها فنجان القهوة . ودارت الأيام دورتها ، وتسنم العمال غارب الحكم ، والتقى سعد وماكدونالد وجهاً لوجه ، فلم يكن كبير العمال أقل تشبثاً بمبادىء الاستعمار من ملنر وكرزون .

واليوم نرجو أن لاتخدع الظواهر المصريين ، فالعمال كالمحافظين وإن اختلفت الخطط ، وتباينت الأساليب . ففى الحرب العالمية الأولى ، وفى سبيل نصرة قضية الحلفاء ، بذل المصريون من أموالهم ودمائهم ، ثم آمنوا بالوعود الولسنية التى أذنت فى الناس بحق الشعوب فى تقرير مصيرها ، فهبوا يطالبون بحقهم فى الاستقلال ، فقابلت السياسة البريطانية ، وكانت مصطبغة بصبغة الأحرار ، حركتهم بالقمع والاخماد .

وفى الحرب العالمية الثانية ، لم يضن المصريون بتضحية ، فى سبيل نصرة قضية الديمقراطية . فلما وضعت الحرب أوزارها وتسلم العمال مقاليد السلطة ، صدق المصريون وثيقة الأطلسى ، وآمنوا بما بشر الحلفاء به من اعلان الحريات الأربع ، أو الفقاقيع الأربع ، فقابل العمال تضحياتهم بالعقوق ونكران الجميل ، وأبوا عليهم الجلاء ووحدة وادى النيل .

لقد كانت الحرب العالمية الأولى حرباً استعمارية فى أوسع حدود الكلمة ، انتهت باصابة المنتصرين بحمى الطمع فى تقسيم العالم ، والظفر

بأعظم قسط من المغانم والأسلاب . وكان المنتصرون يترنمون ، أيام المجزرة البشرية ، بأناشيد الحق والعدل والحرية . فلما أسدل الستار على تلك المأساة الانسانية ، كان أكبرهم الظافرين ، وغاية الغايات عندهم ، أن يمزقوا أوصال الشعوب المغلوبة ، ويلتهموا أشلاءها . فلما دعى لينين إلى حضور مؤتمر الصلح ممثلا لروسيا أعلن ، في وجه العالم بأسره ، أنه يربأ ببلاده ونفسه ، أن يجلس حول المائدة الخضراء ، جنباً إلى جنب ، مع قوم أجمعوا أمرهم فيما بينهم على سرقة شعوب العالم .

ومامن شك في أن التاريخ يعيد نفسه . ولقد ظهر أن الحرب العالمية الثانية استعمارية مثل أختها الأولى . ولا تلبث أن تضع جراثيم الحرب العالمية الثالثة . بل إن شبح تلك الحرب يرتسم في أفق العالم من جديد . ولقد صرح هنري والاس بأن الماردين الأمريكي والروسي يتأهبان لحرب الفناء وأن بريطانيا ودول الغرب ستقع بين المطرقة والسندان . فقد صحت نظرة أو نظرية ويلز من أن الانسان يشيد صروح الحضارة ثم لا يلبث أن يقوض دعائمها ، ويهدمها من أساسها . وصدقت عبارة برنارد شو من أن الانسان قد برهن ، في كل عصور التاريخ ، على أنه غير جدير بسكنى هذا الكوكب .

إن أروع مأساة في تاريخ الانسانية ، هزت كيان الحضارة أعنف الهزات ، بل كادت تعصف بها ، لم تبرىء الانسان من شهوة

إن هـذا الشريط الأزرق الذى يربط الشرق بالغرب ويجعل مصر ملتقى طرق العالم ، ويصل بينها وبين قارات ثلاث هى أفريقيا وأوروبا وآسيا ، يجعل المسيطر عليه فى مركز استراتيجى منيـع ، ويكفل له الغلبة ، ولهذه الاعتبارات كان وجود قوات أجنبية على ضفافه مثـــاراً للحروب الطاحنة وخاصة إنه أضعف شريان فى جسم الامبراطورية البريطانية كما يقول الانجليز أنفسهم . وإذن فلابد أن تـكون مصر على الحياد الدائم وأن يكون هذا الحياد مضموناً من جميع الدول حتى لا يكون لاحداها التفوق على الأخرى ، وحتى لا يكون قيام السيطرة الأجنبية عليها داعياً لاطلاق الحروب العالمية من عقالها ، وانتزاع السيادة من انجلترا بعد ضربها الضربة القاصمة .

وحرية البحار تصبح كلمة جوفاء إذا بقيت قوات بريطانيا لهـا السلطان على قناة السويس . وليس يصح فى الأفهام أن يكون هناك ضمان للسلام العالمى إذا لم تـكن حرية البحار مكفولة .

وحرية التجارة هى حجر الزاوية فى بناء السلام العالمى . وليس مما يكن تصوره قيام تلك الحرية مع وجود قوات مسلحة متسلطة على قناة السويس وهى أهم طرق التجارة العالمية .

وإذن فحرية القناة فى السلم والحرب ، هى أقوى ضمان لتحقيق السلم العالمى . ومصلحة الدول جمعاء تقضى بأن يكون لمصر وحدها حق ، وعليها واجب ، حراسة قناة السويس دون أن تشاركها فى ذلك

دولة أجنبية منفردة ، على أن تكون حيدة القناة مكفولة من جميع الدول دون المساس باستقلال مصر ، أو التدخل فى شئونها الداخلية.

إن ترديد السياسة الاستعمارية لنغمة الاشتراك مع مصر فى الدفاع عن قناة السويس ، فى عصر المدنية الذرية ، لهو بمثابة السخرية بالعقول ، ولا يمكن أن تنطوى تحته إلا الرغبة الجامحة فى احتلال مصر.

وما وجه أن تبدىء السياسة الاستعمارية وتعيد فى ضمان الحكم الذاتى للسودان ، واستبقاء الحكم الثنائى المصرى — البريطانى شكلا ، والبريطانى موضوعاً ، وأخيراً بدعة الاستفتاء فى تقرير المصير ، إلا أن تكون الجريمة مختمرة فى الرءوس الاستعمارية على بتر السودان عن جسم مصر ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ؟

إن السياسة البريطانية تعطينا من طرف اللسان حلاوة ، وتروغ منا كما يروغ الثعلب . فما ينفعنا أن تقسم جهد إيمانها أن موقفها حيال مصر مشبع بالعطف ، إذا كانت تدوس استقلالنا تحت قدميها بدعوى صيانة المواصلات الامبراطورية ، وتجهز على حريتنا متعللة بالضرورات الاستراتيجية .

لقد سقط قناع الرياء عن وجه السياسة الاستعمارية ، وبدت سافرة فى مطامعها ، وتحت بريق الابتسامة الخادعة لا تستطيع أن تخفى مظهرها وهى تكشر للوحدة والجلاء عن أنياب الاغتيال ، فماذا نصنع ؟ نصنع كما يصنع كل شعب مغلوب على أمره ، لا يملك إلا الحق

تصفية الامبراطورية البريطانية

وقف تشرشل إبان الحرب العالمية الثانية خطيباً . فأهاب بسامعيه، بل أهاب بسمع العالم بأسره . أنه ماجاء الوزير الأول ليشرف على تصفية الامبراطورية البريطانية . وبذلك سقط قناع الرياء السياسى عن وجه شيخ المحافظين ، فبرز متشبعاً بالروح الاستعمارية ، رغم المجزرة البشرية التى لطخت وجه الأرض بالدماء ، وبدت بريطانيا سافرة ، تخوض غمار الحرب ، لا ذوداً عن الديمقراطية ، وحريات الشعوب الضعيفة ، ضد طغيان الطوفان النازى ، ولكن دفاعاً عن امبراطوريتها المتداعية الأركان التى شيدت بدماء الاستبداد ، وجماجم الاستعباد .

ثم وضعت الحرب أوزارها ، فأقبل حزب العمال يتهادى إلى مقاعد السلطان ، بعد أن عقد النصر بلوائه فى المعركة الانتخابية . فعقد قصار النظر السياسى ، على حكم العمال ، الآمال الكبار . على أن شيخ العمال اتلى ما لبث أن أيقظهم من أحلامهم إيقاظاً خشناً ، إذ أعلن بملء فيه ، فى وجه العالم أجمع ، أن العمال يحرصون على الامبراطورية حرص إخوانهم المحافظين عليها ، بل هم أشد حرصاً . ثم جاءت الحوادث والأحداث ناطقة بأن العمال والمحافظين فى الاستعمار سواء .

وترى المحافظين والعمال ثملين بخمرة النصر ، فلا يشعرون بأن امبراطوريتهم تترنح للسقوط ، ذلك بأنها أمست تعيش فى زمان غير زمانها ، ومكان غير مكانها . فآذنت شمسها بالغروب ، وفقدت عناصر البقاء ، ودبت إلى أحشائها عوامل الفناء ، وأخذ بناؤها يتهدم ، وصرحها يتصدع ، فأشرفت على الانهيار والزوال . ولعلنا لا نقبر حتى تقبر تلك الامبراطورية الهرمة المتهـــدمة التى بنيت بالأشلاء والجماجم . وإذا كان جيبونز قد وضع كتابه الخالد عن تدهور وسقوط الامبراطورية الرومانية ، فعسى أن يتاح لنا أن نضع كتاباً متواضعاً عن انحلال الامبراطورية البريطانية ، يكون عبرة للجيـل الحاضر ، والأجيال المقبلة .

وليس من يمارى فى أن انتصار بريطانيا فى الحرب الأخيرة قـد مد فى عمر امبراطوريتها فترة من الزمن قصيرة . ورغم الظواهر والمظاهر ، فمثلها مثل البالون الذى تكفى إبرة لتفش نفخته الكاذبة . فما بالك إذا بات هـذا البالون السكسونى الأجوف الفارغ يتلقى الطعنات والوخزات من كل جانب ، فى الداخل والخارج . بل ما بالك إذا كانت معاول الهدم تقوض هذا القصر فى اسبانيا .

لقد توارت المانيا مؤقتاً من مسرح السياسة العالمية ، وزال الخطر الذى كان يهدد انجلترا من غرب أوروبا . فاذا قال نابليون إن أنفرس هى المسدس المصوب إلى صدر انجلترا ، فقد تسلط المارد النازى حيناً على شواطىء غرب أوروبا كلها فكاد يمحو الجزر البريطانية من الوجود

أويغرقها فى اليم كما أغرق أسطولها الحربى والتجارى. ولكن اختفت المانيا الهتلرية ، فنبتت روسيا السوفيتية وهبت عواصف الخطر على الامبراطورية البريطانية من شرق أوروبا . وعندنا أن الصراع بين العملاق الأمريكى والعملاق الروسى هو فى الحقيقة صراع على من يرث الامبراطورية البريطانية المحتضرة .

كان الألمان يقولون إن تشرشل هو الذى يحفر قبر الامبراطورية البريطانية بيده . ولعلنا لا نجاوز الحقيقة أو نعدو الصواب ، إذا قلنا بأن تشرشل قد قام اليوم ينعى الأمبراطورية أو يؤبنها بمقالاته التى يقول فيها أن التوسع السوفيتى هو ضربة قاصمة للأمبراطورية .

وروسيا السوفيتية أشد خطراً على الأمبراطورية البريطانية من المانيا الهتلرية . فهى تفوقها فى الموارد البشرية والموارد الطبيعية . وهى تتاخم الأمبراطورية من جوانب عديدة . وليست تحميها منها بحار كما كان حائط الماء فى المانش يحمى انجلترا نفسها من غائلة الجبار النازى.

وأساليب الحرب الحديثة ، من قنابل ذرية ، إلى قنابل صاروخية ، إلى أشعة كونية ، إلى الماء الثقيل ، كل أولئك يجعل الامبراطورية البريطانية كلها ، بل انجلترا ذاتها فى متناول التدمير والتخريب إلى حد أن هنرى والاس ينذر اليوم بأنه إذا اشتبكت أمريكا مع روسيا فى حرب فسوف تكون انجلترا وأوروبا بين المطرقة والسندان ، ويحل بها جميعاً الدمار والخراب .

ويهدد الدب الروسى الأمبراطورية البريطانية من ناحية المضايق وجهة الخليج الفارسى . ولعل أخطر ما ينطوى عليه التهديد السوفيتى هو تلك الروحية المستمدة من مبادىء لهـــا سحر يستهوى النفوس والعقول معـــاً .

بل إن رياح الخطر تهب نكباء على الأمبراطورية البريطانية من يقظة الوعى الوطنى فى الشعوب التى ترزح تحت نيرها . فمصر والسودان وفلسطين والهند وبورما وجنوب أفريقيا كلها تتأهب اليوم لكسر القيود ، وتحطيم الأغلال .

ولقد كانت انجلترا فى الماضى تشـــد بناء أمبراطوريتها المتداعى بالتغرير والتضليل ، ولكن أباطيلها وأضاليلها قد انكشفت .

ولقد كانت تحكم بالهيبة والنفوذ أكثر مما تحكم بالقوة المادية ، ولكن ظهر الآن ، بعد الحرب العالمية الثانية ، أنه لولا روسيا وأمريكا لأصبحت انجلترا نفسها فى ذمة التاريخ .

قد يعترض علينا بأن انجلترا تحتمى اليـــوم بأمريكا لتحمى لها امبراطوريتها وتدفع عنها غائلة روسيا السوفيتية . ولكن نظرة عميقة فاحصة تكفى للاقتناع بأن أمريكا إن صنعت ذلك فانما تصنعه بأفدح الأثمان لانجلترا ، وهو أن تكون الوارثة الطبيعية الامبراطورية البريطانية إذا قدر لها أن تقوى على تقليم أظافر الدب الروسى .

فعلى أى وجه قلبنا مسألة الامبراطورية البريطانية نجد أنها تحمل فى جوفها جراثيم موتها ، وأنها صائرة إلى الزوال ، سواء أكان على يد الغير ، أم من هبات الشعوب المستعبدة التى تنزع إلى الحـــرية ولا تطيق الاستبداد .

ولئن بدت شجرة الامبراطورية ، لبعض النظرات السطحية ، اليوم زاهية مزدهرة ، فهى وشيكة الذبول . ولئن أضاءت جوانبها فمصيرها القريب إلى الأفول . والشمعة يزيد اشتعالها حين توشك أن تنطفىء . ولسوف تصدق نبوءة الباندیت جواهـــر لال نهرو الزعيم الهندى ، إذ تنبأ بقيام اللايين من شعوب آسيا بثورة تتطور فتشعل حرباً عالمية ثالثة . ولقـد تحدث عن جنوب شرق آسيا وأندونيسيا فقال : «من الواضح أن بريطانيا تحارب فى معركة خاسرة، وأن معين قوتها الامبراطورية القديمة قد أخذ ينضب . وإنه من المؤكد ، فى هـذا العالم غير المستقر ، أن شعوب آسيا لن تذعن عن طيب خاطر لأية امبراطورية أو أية سيادة ، بل إنها ستقوم حتما بثورة لن يخمدها شىء ولا القنبلة الذرية ، وتؤدى إلى حرب عالميـة ثالثة ». وختم الزعيم الهندى نبوءته بقوله : « إن هناك تشابهاً مفجعاً بين حرب التدخل البريطانى فى أندونيسيا ، وحرب التدخل الأخرى التى أشعل نيرانها فى أسبانيا الفاشيون الايطاليون والنازيون الألمان ، وقد كانت مقدمة للحرب العالمية الثالثة . ولقد أخذنا نرقب التدخـل

البريطانى بينما كانت تنمو فى نفوسنا روح السخط والشعور بالعار مع عـدم القدرة على عمل شىء بالنسبة للقوات الهندية التى تستخدم فى القيام بعمل بريطانيا القذر ضد أصدقائنا الذين يقومون بنفس المعركة التى نحن قائمون بها » .

قد يقال إن حرارة الايمان الوطنى هى التى أوحت إلى القائد الوطنى نهرو بتلك الصورة السوداء القاتمة عن مستقبل الامبراطورية البريطانية ، ولـكن ها هـــو السيرجون أندرسون وزير المالية فى الوزارة البريطانية السابقة ، يصرح بأن الحرب قد كلفت بريطانيا ما تتراوح قيمته بين تسعة آلاف مليون وعشرة آلاف مليون من الجنيهات . ولما كان الدين الوطنى لما قبل الحرب هو تسعة آلاف مليون جنيه فقد تبين عند إقفال الحسابات الخاصة بشئون الحرب أنه ارتفع إلى خمسة وعشرين ألف مليون جنيه . وبينما كانت بريطانيا قبل الحرب دولة دائنة إذا بها تصبح الآن دولة مدينة بدين خارجى يبلغ على وجه التقريب نحو أربعـــة آلاف مليون جنيه . ولعمرى إن الصورة التى يرسمها أندرسون عن عوامل الانحلال فى الامبراطورية البريطانية لهى فى الواقع أشد سواداً من الصورة التى يرسمها نهرو . ولقد كان نابليون يقول إن المال عصب الحرب ، وهو فى الواقـع عصب السياسة ، بل هو عصب كل شىء . فاذا كانت انجلترا قد أصبحت ماليتها مثقلة إلى الحد الذى يصوره وزير ماليتها السـابق ،

فلا شك أن امبراطوريتها تمشى إلى الفناء بأسرع الخطوات .

وإن ننس فلا ينبغى أن ننسى أن أحد غلاة المستعمرين من الانجليز قد أرسل صيحة الفزع من جراء النقص الفاحش فى وسائل النقل البحرى بعد الخسائر الفادحة التى كبدتها الغواصات النازية للبحرية البريطانية حتى كادت تجعلها أثراً بعد عين ، وينذر بالطامة الكبرى إذا استردت أمريكا الأربعماية سفينة التى منحتها لانجلترا بطريق الاعارة والتأجير ، معلناً أن بريطانيا سوف تفقد مكانها لا محالة كأعظم دولة للنقل البحرى .

وإذا ظل المستعمرون الانجليز يعيشون وسط القرن العشرين بعقلية القرن التاسع عشر ، وإذا كانت بريطانيا العظمى ، التى أصبحت دولة من الدرجة الثانية ، تجمد فلا تتطور حتى تساير روح العصر فهى تتقهقر ، ثم تتضاءل وتنكمش حتى تصبح هى والبرتغال سواء .

قبل الحرب كانت لبريطانيا السيادة على البحار . وبعد الحرب بقيت لها السيادة ولكن على قاع البحار . وإنى لأذكر مقالا لمجلة القرن التاسع عشر وما يليه ، ترثى فيه البحرية البريطانية ، وتقدر أنه فى نهاية سنة ١٩٤٤ سيكون لأمريكا أسطول حربى وتجارى يعادل ثلاثة أخماس أساطيل الدنيا مجتمعة . وها أن الاسطولين الألمانى واليابانى قد أصبحا فى خبر كان ، ولكن أمريكا قد انتزعت علم البحار من بريطانيا ، وبات الأسطول البريطانى لا يكاد يذكر إلى جانب الأسطول الأمريكى ، بل أصبحت انجلترا نفسها ذيلا لأمريكا . ولذلك فقد أمست انجلترا فى حالة عجز تام عن الدفاع عن امبراطوريتها .

وخرجت أمريكا من عزلتها ، واندفعت تبتغى التوسع الاستعمارى فى شرق آسيا ، والشرق الأوسط . لا بل فى جوانب الدنيا الأربعة. وإذا اصطدمت بانجلترا فى المعركة الاستعمارية ، فانجلترا هى المهزومة لا محالة ، نظراً لتفوق أمريكا الساحق فى الجو والبحر والبر ، وخاصة لتفوقها الماحق فى ميادين الاقتصاد .

ودرجت روسيا السوفيتية على أساليب روسيا القيصرية ، فانتشرت فى الأرض طامحة . وهى تخيل للشعوب بمبادىء المساواة الخلابة ، وتنصب نفسها مدافعة عن حريات الأمم ، فتصرخ فى وجه بريطانيا أن تتخلى عن مصر وفلسطين والعراق قبل أن تطالب قواتها بالجلاء عن ايران .

وأهم من تلك العوامل جميعاً يقظة الوعى القومى فى الشعوب المستعبدة من الاستعمار البريطانى ، وشعورها العميق بحقها فى الحياة والحرية ، ورغبتها الصادقة فى تحطيم أغلال الاستعمار . وإذا كان هذا هو مبلغ إيمانها بضرورة طرح نير الرق عن عاتقها ، وكسر قيود العبودية عن أرجلها ، فليس يجدى معها جبروت أو خداع .

وفى العهد الفكتورى باغت انجلترا ذروة التقدم الصناعى إذ كانت الصناعة تعتمد على الفحم الأسود ، وكانت انجلترا غنية به . فلما اكتشف الفحم الأبيض الناتج من مساقط المياه ، وتضاعفت تلك القوة الآلية المحركة بالقوة الهائلة الناتجة من الوقود السائل المسمى

بالبترول ، فقدت بريطانيا ميزة السبق فى مضمار الصناعة ، وتقدمت عليها المانيا وأمريكا . وإذا كانت المانيا قد اختفت الآن من الميدان الصناعى . فان قوة الصناعة الأمريكية كفيلة بانتزاع أسواق العالم من بريطانيا . وكل من له عينان للنظر ، وأذنان للسمع ، يرى ويسمع آيات تفوق أمريكا على انجلترا فى ميادين الصناعة والاقتصاد .

وكان غلاة الاستعمار من البريطانيين ينادون بأن التجارة تتبع الراية ، أى أن القوة المادية الغاشمة تفتح الأسواق الخارجية فى ممتلكات التاج التى يضع الاستعمار البريطانى يده عليها عنوة أو خداعا . ولكن إذا كان قد ظهر فساد تلك الدعوى قبل الحرب ، فلقد بات فسادها بعد الحرب ، أشد ظهوراً . ولو أنصف المستعمرون مرة واحدة ، لقالوا إن التجارة تتبع الحرية . فلقد لوحظ أن تجارة بريطانيا نمت وازدهرت مع المستعمرات التى منحت الحكم الذاتى ، على حين أنها ظلت راكدة فى الأمم المستعبدة كالهند مثلا . وأعجب من ذلك أن تجارة انجلترا مع الدول الحرة المستقلة تربو ، بما لايقاس ، على تجارتها مع الأمم الخاضعة لسلطانها ، وتجارتها فى الداخل أضعاف أضعاف تجارتها فى الخارج ، وما تنفقه مواردها على التسلح والحرب ومغامرات الدبلوماسية المتجردة من الضمير ، فى سبيل فتح أسواق خارجية قوة واقتداراً ، يستنفد أكثر من نصف مواردها المالية إلى حد صرفها عن تحقيق وجوه الاصلاح الاجتماعى . وحتى قدر بعض الباحثين

من الانجليز أنفسهم ، وعلى رأسهم هوبسون ، أن أكثر من ربع سكان المدن البريطانية يعيشون بما دون الكفاف .

ولقد تجلى سوء الحالة الاجتماعية بعد الحرب ، وشلت الصناعة البريطانية أو كادت ، وانحدرت التجارة إلى أعمق أعماق هاوية الكساد ، وعزت المواد الغذائية والمواد الخام . وعقد البؤس غيومه السوداء فى أفق انجلترا ، ولن تروج الصناعة ، وتزدهر التجارة ، حتى تطلق مبدأ الاستعمار ، وتعتنق مبدأ الحرية ، وتتواصى مع ضحاياها من الشعوب ، بالاستقلال الصحيح .

لقد مضى وانقضى عصر الرأسمالية ووليدها الاستعمار . وآن لأصحاب رءوس الأموال وأصحابهم من دعاة الاستعمار ، أن يعترفوا بأن هذا الحلف الثنائى المشئوم بين الرأسمالية الدولية والاستعمار يجر إلى الحروب الدموية فى سبيل النزاع على الأسواق الخارجية ، وأن الحروب تتطلب دوام التأهب ، والتسلح يقتضى باهظ النفقات ، ويحدث فى المصانع والمعامل مجاعة فى الأيدى العاملة ، فيدعو إلى بؤس المواطنين ، وإلى شقاء الانسانية جمعاء .

ما أشبه الامبراطورية البريطانية بذلك الوعل الذى يعيش فى قمم الجبال فى جنوب أفريقيا . فلقد استرعى أنظار وأفكار بعض الباحثين أنه ينحدر من قمة الجبل ، ثم يتابع انحداره حتى يهبط إلى سفح الجبل ، ثم لا يلبث أن يقذف بنفسه فى البحر مؤثراً الموت على الحياه . ولقد

اهتدى الباحثون إلى أن ذلك الوعل إذا افتقد الفتيامينات فلم يجدها ، عمد إلى الانتحار على الصورة التى قدمنا. وكذلك تفقد الامبراطورية البريطانية الفيتامينات فتدخل فى دور النزع . ولقدكان خيراً لبريطانيا أن تعيش بروح شكسبير وداروين من أن تعيش بروح كليف وسيسيل رودز .

إن الأرقام لا تكذب ولا تحابى . وهى تنادى بصوت عال رهيب أن الاقتصاد ينمو فى جو الحرية ، وأن التجارة تزدهر فى بيئة الاستقلال ، وأن القهر والعنت لا يمكن أن يدوما . فخير لبريطانيا أن تعدل عن فكرة الامبراطورية ، قبل أن تكرهها الأيام على العدول ، وأن تعجل بالجلاء عن السودان ومصر وفلسطين والعراق والهند وجنوب أفريقيا وشرق آسيا ، وتنشىء مع شعوبها علاقات تجارية حرة .

إن كثيراً من الباحثين البريطانيين ، وفى طليعتهم هوبسون ، يشيرون على قومهم بتطليق فكرة الامبراطورية إذ أن إثمها أكبر من نفعها ، أو أن كلها آثام ، ولا جدوى فيها على الاطلاق . فمنطق الأرقام ينادى بأن الامبراطورية تضر بالصناعة القومية ، وتؤذى التجارة ولا تنفعها ، وتحدث قحطاً فى الأيدى العاملة ، وتضاعف النفقات حتى تكاد توقف حركة الاصلاح الاجتماعى ، ثم تتوج كل تلك الأضرار الفادحة بكوارث الحرب العالمية التى تكاد تعصف بكيان انجلترا نفسها .

وليس يغنى عن المستعمرين شيئاً أن يعطوا ضحاياهم من الشعوب جرعة من الحرية ، فلقد تنبه الشعور الوطنى فى تلك الضحايا إلى حد التماس الحرية صحيحة ، والاستقلال كاملا ، غلاباً واغتصاباً ، طوعاً أو كرهاً . ولقد صدقت الضحايا جميعاً عن المخدر البريطانى وهى تزهد فيه لأنه قد يصرفها عن الجهاد . وما أصدق تشبيه جمال الدين الأفغانى الاستعمار البريطانى بذلك الخفاش الهندى الذى يجثم على صدر النائم ولا ينفك يمتص دمه فى رفق وهوادة والفريسة لا تشعر بالألم بل لعلها تشعر بشىء من الراحة لأنه فى أثناء استنزاف الدم يروح عليها بجناحيه وما يزال بها حتى يتركها جثة هامدة لاحراك بها . ألا فليعلم المستعمرون من الانجليز أن الخفافيش التى لا تعيش إلا فى الظلام لا تحيا فى ضوء الحرية .

وسواء أكان تشرشل يحفر قبر الامبراطورية البريطانية بيده أو يرثيها بقلمه ، فلعله لا يلق مصرعه حتى يشهد مصرعها ويشرف على تصفيتها .

لقد دفن مركز بريطانيا الدولى . وفقدت سيطرتها العالمية ، وكذلك تبدد الأوهام ، وتحطم الأصنام ، وفى عصر النور يتلاشى الظلام ، ولن تبعث من مرقدها مهما شق تشرشل وأضرابه من الجيوب ، ولدموا الخدود . ومهما سكبوا من عبرات ، أو بذلوا من دموع ودماء .

وحدة وادى النيل حقيقة طبيعية
لا يمارى فيها إلا المستعمرون

آثرت أن أتناول بالبحث وحدة وادى النيل ، إذ هى المطلب المقدس الذى انعقد عليه إجماع السودانيين والمصريين على السواء ، إيماناً منهم بأن تلك الوحدة هى مسألة حياة أو موت بالنسبة للقطرين الشقيقين ، ولأن تاريخ هدم تلك الوحدة يلقى كثيراً من الضوء على ألاعيب السياسة الاستعمارية ، ويصم بريطانيا النازية ، بما كانت تصم به المانيا النازية .

وليعلم من يريد أن يعلم من المستعمرين وصنائعهم المبعثرين فى جنبات الوادى ، أن أى اتفاق يحمل فى أحشائه وضع المسألة السودانية على الرف ، أو يعمد إلى أنصاف الحلول ، أو يلجأ إلى الصيغ الخلابة ، والصور البراقة ، إنما يولد ميتاً .

فأما تمزيق أوصال الوحدة تحت ستار تقرير المصير ، أو أى ستار آخر ، فدون ذلك ويجرى النيل دماً .

والآن أنادى بأعلى صوتى وملء فمى ، أنه يكفى أن يلقى المرء نظرة عابرة على الخريطة . ليزداد إيمانا بأن النيل المبارك يربط بأقدس رباط بين نصف واديه الشمالى ، ونصف واديه الجنوبى ، وأن الطبيعة نأبى الاباء كله الفرقة والانفصال ، وما كان ليد الاستعمار أن تقطع ما أمر الله به أن يوصل .

ولقد سمعت اعتراضاً يتهامس به صنائع الاستعمار ، وتردد الأبواق الاستعمارية نغماته ، يقول بأن نهر النيل فى أفريقيا مثله كمثل نهر الدانوب فى أوروبا ، إذ يجمع كلاهما بين شعوب متفرقة ، ولو شاء ربك لجعلهم أمة واحدة . وأقول إن القياس مع ألف فارق . فالدانوب يجتاز شعوباً تتباين فى الجنس والدين واللغة والعادات والتقاليد والذكريات التاريخية ، فأما النيل فيضم قوماً يتحدون فى الجنس والدين واللغة والعادات ، وتؤلف بين قلوبهم رغبة التحرر من نير الرق والعبودية ، والعيش فى وئام كأخوة متحابين .

وما زالت كلمة هيرودوت الملقب بأبى التاريخ : « إن مصر هبة النيل » تدوى فى سمع العالم .

وما برحت الطبيعة تغرد بأعذب الألحان ، تلك الأنشودة الخالدة التى تغنى بها عمرو بن العاص ، ورددتها قيثارة الدهر ، إذ هتف وهو يرسم لمصر صورة رائعة تملأ الأسماع والأبصار : « يشقها نيل ميمون الغدوات ، مبارك الروحات » .

وأخاف أن يقال هذا شاعر يحلق فى أجواء الخيال ، فأسارع بالهبوط إلى مستوى حقائق الأرض ، فأخاطب المستعمرين باللغة المادية التى يفهمونها ، فقلوبهم غلف ، وضمائرهم متحجرة ، لا ينفذ إليها شعاع من نور الحق والحقيقة ، لأن الأطماع تغشى على أبصارهم فتحجب عنهم الحقائق ، ولأن الماديات تتسلط على مشاعرهم ، فتجعل

الشهوات الجامحة تطغى على الشعور السليم ، والعقل المتزن ، وتقتل عاطفة الانصاف ، وتميت ملكة الحكم والتقدير . على أن ما نردده ما هو بخيال شاعر ، ولكنه حقيقة طبيعية لا يمارى فيها أحد من المنصفين .

إذا اختمرت فى رأس الاستعمار البريطانى جريمة فصل السودان عن مصر ، لتكونن أسود جريمة فى التاريخ ، وليكونن من يغمس يده فيها ، أشد الناس إيغالا فى الاجرام القومى ، فما الفصل بين السودان ومصر إلا بمثابة عملية البتر ، وتمزيق أوصال الوحدة الطبيعية ، لا بل هو فصل الروح عن الجسد .

ألا وإن أشد المتعنتين من المستعمرين ليعترف بتلك الحقيقة الهائلة الرهيبة وهى أن مصر بغير النيل تصبح صحراء قحلاء جرداء لا حياة فيها ولا إحياء .

وإن الموازنة البسيطة بين الفيضان العالى والفيضان المنخفض ، أو بين الرى والجفاف ، لتبرز صورة الفروق الواضحة بين الازدهار والانتعاش ، والذبول والموات ، أو بين الخصب والنماء ، والجدب والامحال .

سيقولون : ومنذا الذى يفكر فى حرمان مصر من مياه النيل ؟ أو منذا الذى يستطيع أن يقطع عنها ماء نهرها ؟

فأما إن فى الأمكان قطع مياه النيل عن مصر ، فهذا مالا سبيل إلى اللجاجة والمكابرة فيه حتى من المستعمرين أنفسهم . فلقد بلغ العالم من التقدم العلمى والهندسى ما يجعل تلك الحقيقة فى حيز المستطاع ، لا من نسج الخيال المحموم . وهل أعيى رمسيس ، ولم يكن العالم قد بلغ المرحلة الحاضرة من التقدم العلمى ، أن يحول مجرى النيل ؟

لقد شاء اللورد كرومر أن يسكن ثائرة المخاوف لدى الفلاح المصرى من هذه الناحية ، وقد كان يخلع على نفسه لقب نصير أصحاب الجلاليب الزرقاء ، وكان قومه يضفون عليه أثواب أحد بناة الامبراطورية ، فكان لا ينى عن التأكيد بأن فتح السودان كان ضرورياً لحفظ كيان الدولة المصرية التى يقبض بيده على مصائرها . وما كان ليكتم خوفه من أنه إذا بقى السودان أرضاً لا يملكها أحد من الناس ، لاستولت عليها الدول الأوروبية ، ولحولت مجرى النيل إلى جهات أخرى تملكها . ومن أجل ذلك جاء الحكم الثنائى الانجليزى المصرى مؤيداً لتلك الحقيقة وهى أن النيل نهر مصر ، ما فى ذلك شك ولا ريب.

ونحن نبادر إلى الجهر بأن النيل ليس نهر مصر فحسب ، وإنما هو نهر السودان ومصر ، وأن النازلين على ضفافه ، من منبعه إلى منصبه ، لهم نفس الحقوق وعليهم ذات الواجبات .

وباطل ما زعم المستعمرون من الانجليز من أنهم لم يقيموا الحكم الثنائى المزعوم الموهوم فى السودان إلا ليحولوا دون تحويل مجرى

النيل من جانب الدول الأوروبية ، ويبعدوا عن ربوع السودان شبح الامتيازات الأجنبية التى كانت مصر تنوء تحت أثقالها فى ذاك الحين ، وإنما أرادوا أن يشبعوا شهوة الاستعمار فى نفوسهم ، ويضعوا حجر الأســـاس فى صرح امبراطوريتهم الأفريقية ، ثم أنشأوا مشروع الجزيرة لا لتعمير السودان ، ولـكن لاستغلال السودانيين ، ورجاء أن تنقلب معامل لانكشير من مجاعة قطنية إلى تخمة قطنية . وفى كل حال ، فنحن نأخذهم باعترافهم بأن تحويل مجرى النيل ، وصيرورة مصر صحراء ، ليس من مخترعات الأوهام .

وما التهديد بحرمان مصر من مياه النيل بتهديد أجوف طالما كانت هناك قوة أجنبية مسيطرة على منابعه . ولو بقى الانجليز فى السودان ، وانجلوا عن مصر لظلوا متحكمين فى مصر ، متسلطين على مصيرها . ولو أخلى الانجليز السودان ، وظلوا فى مصر ، وكانت للمصريين يد فى السودان ، لاستطاعوا إجلاءهم عن مصر بقطع ماء النيل عنهم . فهذا التهديد هو بمثابة سيف ديموقليس المعلق على رءوس المصريين ، والمسلط على استقلالهم فى كل حين .

والتاريخ على ما نقول شهيد . ففى ١٨ نوفمبر من عام ١٩٢٤ ، وقعت جريمة اغتيال السيرلى ستاك باشا سردار الجيش المصرى . وكان على رأس الوزارة سعد زغلول . واستنكرت الأمـــة تلك الجريمة النكراء بجميع هيئاتها وطبقاتها . وبرغم كل أولئك فان اللورد اللنبي

المندوب السامى البريطانى فى مصر فى ذلك الحين ، أبى إلا أن يوجه للحكومة المصرية إنذاراً ، أو تبليغاً ، أو بلاغاً نهائياً ، أو سمه ما تشاء ، يفيض بالتهديد والوعيد ، ويفرض على مصر العقوبات الصارمة التى لا تمت إلى تلك الجريمة بسبب ، وجعل اللورد المتجنى فى رأس العقوبات أن الحكومة السودانية ، وإن شئت فالسلطة البريطانية المطلقة ، ستزيد المساحة التى تروى فى أرض الجزيرة من ٣٠٠ر٠٠٠ فدان إلى رقم غير محدود وفقاً لما تقضى به الحاجة !

والمعنى الذى تنطوى عليه تلك العقوبة ، كما يقول المعلقون من أشياع الانجليز أنفسهم ، أنه ابتداء من ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٤ لم تعد الحكومة البريطانية تسلم بأن النيل نهر مصر ، وأن لندن جعلت النهر العظيم تراثاً خاصاً للسودان ، أو على الأصح شراباً غير سائغ للشاربين من المستعمرين .

الاستعمار عدو الوحـــدة

استغل الاستعمار البريطانى حادث اغتيال السردار فى أبشع وأشنع صور الاستغلال ، فلم يتورع عن اغتيال حقوق مصر ، ولم يتعفف عن التنكيل بها ، إذ فرض عليها عقوبة تنطوى على حرمانها من مياه النيل . وهى جريمة لا تمت إلى الجناية بسبب ، مما أثار عاصفة من السخط والاستنكار من جانب بعض المنصفين من الانجليز أنفسهم ، وندع الـكلمة لأرنولد توينبى ، قال : « لقد كانت تلك العقوبة عرضـة لنقد سريع وعنيف فى بريطانيا العظمى لاعتبارات ثلاثة ، إذ لم تـكن تمت بسبب إلى مقتل السر لى ستاك ، وكانت نقضاً لميثاق بغـــير حق ، وكانت كفيلة بفقدان ثقة طائفة الفلاحين المصريين ، وقادة الحركة الوطنية فى مصر ، على السواء ، ببريطانيا العظمى . ثم إنها تعزز الاقتناع فى مصر بأن ليس هناك ضمان ملائم للحقوق المصرية فى ماء النيل بدون رقابة سياسية مصرية خالصة على السودان » .

وفى نوفمبر وديسمبر من عام ١٩٢٤ ترامت إشاعة ملحة فى جوانب القاهرة بأن دونتج ستريت لم تنفذ هـذا البلاغ النهائى شعوراً منها بفداحة الظلم الذى ارتـكبته القوة الغاشمة ، ورغبـة فى تسكين عاصفة الاستنكار التى أثارها ذلك التبليغ المشئوم .

وفى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٢٤ تكلم السير أوستن تشمبرلن فى

مجلس العموم البريطانى بصفته وزيراً للخارجية ، فأبدى أسفه لأن الطلب قد صيغ فى عبارات غير محدودة بدعوى أن البلاغ النهائى قد كتب تحت سلطان العجلة .

ولقد قال وزير الخارجية فى نفس الخطاب : « لو أنا وجدنا حكومة مصرية صديقة نتعامل معها ، وكانت تلك الحكومة مخلصة للشروط التى يقوم على أساسها التعاون فيما بيننا ، إذن لدعوناهم لأن يشتركوا معنا فى تحقيق يجرى لمعرفة كمية المياه اللازمة للسودان بعد أستيفاء مصر حصتها كاملة » .

ولم تمض إلا بضعة أيام حتى تبودلت الرسائل بهذا الشأن بين المندوب السامى البريطانى فى القاهرة وبين رئيس الوزارة المصرية . ففى يناير عام ١٩٢٥ كتب المندوب يقول : « إن حكومة جلالة الملك ميالة لأن توجه حكومة السودان إلى عدم تنفيذ التعليمات السابقة فيما يختص برى أرض الجزيرة فى السودان فى مساحة غير محدودة على أساس التفاهم لتأليف لجنة ذات خبرة بشئون الرى على رأسها محايد وفيها عضو انجليزى وآخر مصرى تجتمع فى ١٥ فبراير لغرض البحث فى ايجاد قاعدة للرى يمكن تنفيذها مع المراعاة التامة لمصالح مصر وبغير مساس بحقها الطبيعى والتاريخى » .

ولئن دل ما سقناه من الشواهد التاريخية على شىء ، فانما يدل على أن الخطر على حياة مصر واستقلالها موجود ما دام الاستعمار البريطانى

كاملاً فى ربوع السودان ، وأن استقلال النيل لا يكون صحيحاً غير زائف إلا إذا انجلت القـــوات البريطانية عن النيل من المنبع إلى المنصب ، وتحققت وحدة الوادى كاملة غير منقوصة .

لقد راح استقلال مصر ضحية للاحتلال البريطانى فى عام ١٨٨٢ المشئوم . ومنذ ذلك الحين أخذ الاستعمار البريطانى يتربص الدوائر بوحدة وادى النيل . وما لبثت تلك الوحـدة أن وقعت فريسـة بين براثنه فى ١٩ يناير من عام ١٨٩٩ المنكود . وتمت جريمة بتر السودان من جسم مصر على مراحل . ففى عام ١٨٨٤ كان تبييت الجريمة . وفى عام ١٨٨٥ كان الشروع فى التنفيذ . وفى عام ١٨٩٩ تمت الجريمة ، ولا تزال الجريمة مستمرة .

لقـــد ضحى الاستعمار البريطانى برجله غوردون ليشترى بدمه السودان ومنابع النيل .

ثم أبرق الاستعمار وأرعد ، وأرغى وأزبد ، وتهدد وتوعد ، ليحمل مصر على إخلاء السودان لتتم له جناية فصل الروح عن الجسد . وما نحن بمسرفين فى القـول ، ولا متجنين على الاستعمار البريطانى ، بل نقذف فى وجهه بتلك البرقية الظالمة الغاشمة التى أرسلها اللورد غرانفيل إلى السر إفلين بارنج (لورد كرومر فيما بعد) بتاريخ ٤ يناير من عام ١٨٨٤ وهى تدل على مبلغ تجنى القوة المسلحة على الحق الأعزل ، قالت البرقية : « من الضرورى فى المسائل الهامة التى تمس إدارة أو سلامة

مصر ، أن نصيحة حكومة جلالة الملكة يجب أن تتبع طالما كان الاحتلال المؤقت مستمراً . وعلى الوزراء والمحافظين أن ينفذوا تلك النصيحة وإلا فقدوا وظائفهم . ومهما يكن من الاعتراض على إشارة الوزراء الانجليز ، فليس من شك فى إيجاد مصريين ينفذون أوامر الخديو تحت النصيحة الانجليزية » .

وكانت تلك البرقية التعسة بشأن التخلى عن السودان . ونود ، إكباراً للوطنية المصرية ، أن نصارح الاستعمار البريطانى بتلك الحقيقة التاريخية ألا وهى إنه لم يوجد المصرى الذى تجرد من الوطنية ، وتعرى من شعور الشرف والكرامة ، فيقبل أن يغمس يده فى جريمة تمزيق أوصال وحدة النيل . ولم يقدم على هذا الجرم الوطنى إلا أجنبى شرب من ماء النيل ، ولكن لا تجرى فى عروقه الدماء المصرية ، وهو نوبار . فأما خالد الذكر والوطنية شريف باشا فقد صرح من كل قلبه فى وجه القوة الغشوم : « إذا تركنا السودان ، فالسودان لا يتركنا » . وأما رياض فقد أخفق فى تأليف الوزارة لأن المصريين ضنوا بكرامتهم ووطنيتهم أن يقترفوا ذلك الاثم القومى ، إثم تقطيع أوصال النيل . وأما نوبار فقد قفز إلى كرسى رياسة الوزارة فأمر باخلاء السودان .

ويجدر بنا أن نذكر ، إنصافاً للحقيقة والتاريخ ، أنه فى ٩ ديسمبر من عام ١٨٩٤ أرسل رياض باشا إلى اللورد كرومر (السير إفلن بارنج

إذ ذاك) مذكرة قال فيها : لا يستطيع أحد أن ينكر أن النيل حياة مصر . والنيل هو السودان . وكل واحد يسلم بأن الروابط التى تربط مصر بالسودان هى بمثابة الروابط التى تربط بين الجسم والروح. ولو أن دولة تسلطت على منابع النيل لباتت مصر فى قبضة يدها » .

وفى عام ١٩٢٣ تدخلت القوة الغاشمة لحذف النصوص الخاصة بالسودان فى الدستور . وكانت يد توفيق نسيم هى التى تخضبت بدم الجريمـــة .

وفى عام ١٩٢٤ استغل الاستعمار البريطانى مصرع السردار فطرد القوات المصرية من ربوع السودان .

ومن عهد إنشاء الحكم الثنائى الزائف فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ، كانت مصر بمثابة الشريك المرفوع ، وكان عليها كل الغرم ، ولم يكن لها شىء من الغنم على الاطلاق ، وما كان الحكم الثنائى المزعوم الموهوم، إلا خيالا متلاشياً ، أو وهماً من الأوهام الباطلة .

ولقد افتضحت نية الاستعمار البريطانى فى السيطرة على السودان ، وفصله عن مصر ، تحت ستار الرغبة الكاذبة فى تحقيق الحكم الذاتى فيه .

وكان هدلستون ، حاكم السودان العـــام ، هو الأداة لتنفيذ أغراض الاستعمار البريطانى ، والمعول الهدام لتقويض دعائم وحدة وادى النيل . وكان حزب الأمـــة ، وعلى رأسه السير عبد الرحمن

— ٧٥ —

المهدى ، هم صنائع الاستعمار وأدواته فى هدم وحدة وادى النيل من أساسها .

فأما تعيين السير روبرت هاو فلم يكن إلا لتتمم الدبلوماسية ما بدأته القوية المادية .

ولكن هيهات ليد الانسان أن تهدم ما بنته يد الله. وإذا كانت انجلترا تتعلق بمصر لحماية امبراطوريتها أى لحماية غصبها وعدوانها فأولى لأبناء الوادى أن يتشبثوا بوحدة النيل ، مصدر الحياة .

ويد الله فوق أيدى الغاصبين ، والله لا يهدى كيد الخائنين .

الانجليز المستعمرون
يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم

فى ١٩ سبتمبر من عام ١٨٩٨ كادت فاشودة تكون مسرحاً دامياً لتصادم المطامع الاستعمارية بين انجلترا وفرنسا . فقد بات كتشنر ، عنوان الاستعمار البريطانى ، وجهاً لوجـــه أمام مارشان ، رمز الاستعمار الفرنسى . غير أن انعدام تكافؤ القوى ، ما لبث أن حمل فرنسا على الانسحاب من الميدان ، والرضا من الغنيمة بالاياب . فقد كان مارشان على رأس قوة ضئيلة لا يتجاوز عددها مائة وعشرين من الجنود السنغاليين ، وتسعة من الضباط الفرنسيين ، على حين أن كتشنر كان يقود قوة كاملة العـدة والعدد ، معظمها من الجنود المصرية ، وقليل منها من البريطانيين .

وأشفقت فرنسا أن تتطاير شرارة الحرب من فاشودة ، فتندلع النيران إلى جوانب أفريقيا وأوروبا ، فاستكانت ، ونزلت على إرادة بريطـانيا فى الانسحـاب . ولعل فرنسا لمحت شبح الحرب يتراءى فى ثنايا تصريح اللورد سالسبورى إلى السفير الفرنسى كورسل ، إذ قال اللورد للسفير وهو يحاوره : « إن لدى السردار قوة كافية يستطيع بها أن يطرد مارشان ومن معه إلى حيث يشاء » .

وإنما ظهرت انجلترا على فرنسا ، فى ميدانى الحرب والسياسة معاً ، بفضل القوة المصرية ، والحقوق المصرية . فقد كان كتشنر ، فى موقفه

من مارشان ، تظاهره قوة مصرية لا يستهان بها . وعقد النصر ، فى معركة الدبلوماسية ، بلواء كتشنر ، إذ تسلح بالحقوق المصرية ، الطبيعية والتاريخية ، التى لا يرقى الشك إليها .

وحين هبطت القوة الفرنسية أرض فاشودة ، ادعت باريس أن تلك المنطقة ، ليست ملكا لأحد ، بل هى ملك مباح ، ولقد تملكها الفرنسيون بحق الغزو ، ووضع اليد ، وبهذه المثابة أصبحوا يقبضون بأيديهم على سند التمليك الشرعى الذى لاينازعهم فيه منازع. وأحجمت وزارة الخارجية الفرنسية عن إرسال الدعوى طويلة عريضة ، باحتلال الخرطوم ، ومنطقتها فى السودان ، إذ كانت تسلم ، جهرة وعلانية ، بأن الجزيرة ودنقله وما إليهـــا وما يليها ، قد باتت فى قبضة قوات كتشنر المظفرة .

ومما يسترعى النظر والفكر معاً ، أن دوننج ستريت ، فى سبيل تفنيد دعوى فرنسا بامتلاك مديرية فاشودة بالفتح ووضع اليد ، قد تحصنت بحق مصر الثابت فيها ، واقتصرت على المحاجة بذلك الحق ، ولم تشأ أن تزعم ، لا تصريحاً ولا تلميحاً ، أن لبريطانيا دعوى فى التملك من أى نوع كان ، لا فى فاشودة ، ولا فى أى جزء آخر من أجزاء السودان .

ولقـــد بعث كتشنر نفسه برسالة إلى مارشان قال فيها إنه تلقى التعليمات باعادة السلطة المصرية على فاشودة ، وإنه يحتج بكل ما فيه

من قوة ، على رفع العلم الفرنسى فوق أملاك سمو الخديو . وما إن أصبح فى فاشودة حتى رفع عليها الراية المصرية دون الراية البريطانية .

ثم شفع كتشنر تلك الرسالة إلى مارشان برسالة أخرى جاء فيها : « إن من واجبي أن أبلغك بأنه ، وقد رفع العلم المصرى اليوم على فاشودة ، فان مصر قد تسلمت مقاليد الحكم فى تلك المملكة » .

وفى ٢ أكتوبر من عام ١٨٩٨ جاء فى تصريح اللورد سالسبورى إلى السفير الفرنسى فى لندن : « لقد كان وادى النيل ، ولا يزال، ملكا لمصر. ولقد زالت كافة العقبات فى سبيل تلك الملكية ، أو أى مساس بها ، نجم عن غزو واحتلال المهدى ، وذلك بفضل الانتصار فى معركة أم درمان بوساطة الجيش الانجليزى المصرى ، ولقد قبلت فرنسا وجهة النظر هـــذه ، واتفقت مصر وبريطانيا العظمى وفرنسا على الاعتراف ، وما زالت تعترف ، بأن السودان مملوك لمصر ، وما برح مملوكا لمصر » .

ولقد أوردنا لغة شيخ الاستعمار سالسبورى بنصها وفصها، وسقنا لهجته الجافة ، بعجرها وبجرها ، على كره منا ، فى معرض التدليل التاريخى . وإنا لنستميح الأحرار من اخواننا السودانيين والمصريين على السواء عذراً من تلك العبارات الاستعمارية النابية التى يثور ضدها الضمير الانسانى ، إذ تجعل الشعوب سلعاً تباع وتشترى ، وتتقزز منها النفس البشرية ، إذ تصير الأمم إماء ، تساق سوق الرقيق ، وتلك

اللهجة الانسانية التى يمجها العقل البشرى ، إذ يتساوم الأقوياء على الضعفاء . فنحن إذ نطالب بتحقيق وحدة وادى النيل إنما نطالب باسم الاخوة لا باسم الاستعمار .

نحن المصريين نبتغى تعمير السودان ، لا استعمار السودان . وبين نوايا المصريين ونوايا الانجليز ، هوة عميقة . فلقد ابتدع المستعمرون من الانجليز مشروع الجزيرة ، لاستغلال السودان ، وتغذية معامل لانكشير ، لا للنهوض بمستوى المعيشة فى السودان . وليس أدل على ذلك من أن الأجور التى يتقاضاها العمال السودانيون الذين يعملون فى أرض الجزيرة هى دون الكفاف ، حتى إن كثيرين منهم يهلكون جوعاً من قلة التغذية ، أو سوء التغذية ، فوق إرهاقهم بالأعمال التى تجاوز حدود الطاقة البشرية . فأما المصريون ، فتشهد جميع المنشآت فى ربوع السودان ، من إنشاء السكك الحديدية ، إلى إقامة الطرق والكبارى ، إلى تشييد بور سودان ، إلى غير ذلك من أعمال الانشاء والتجديد ، ومظاهر المدنية والعمران ، قد تمت بأموال مصرية ، وجهود مصرية ، وأيد عاملة مصرية .

ولو صح فى الأذهان أن مصر ترمى إلى أغراض استعمارية فى السودان لزهدت فى استعماره كل الزهد ، فلسوف يكون عليها الغرم ، وليس لها الغنم ، إذ سوف ترى نفسها مضطرة إلى سد العجز فى الميزانية السودانية ، كما ينادى بذلك الماضى ، وكما تشهد به ديون مصر

المتراكمة على السودان . ولكن مصر تتشبث بمصدر حياتها ، وينشد المصريون أن تصافح قلوبهم قلوب اخوانهم السودانيين ، وتعانق أرواحهم أرواحهم ، فيعيشوا أحراراً أو يموتوا كراماً .

وفى ١٩ يناير من عام ١٨٩٩ المشئوم أقام البريطانيون الحكم الثنائى فى السودان ، أو على الأصح ، تلك الشركة الوهمية الباطلة ، شركة الذئب مع الحمل ، تحت ستار الدعوى بأنهم يبتغون إقصاء النفوذ الأوروبى عن السودان مخافة أن يهدد حياة مصر بتحويل مجرى النيل ، ورغبة منهم فى زحزحة كابوس الامتيازات الأجنبية عن صدر السودان . والله يعلم والتاريخ يشهد ، أن الشهوة الاستعمارية الجامحة هى التى دفعتهم إلى الاثرة والاستئثار بالسودان .

ولقد توافقت الدبلوماسية الانجليزية ، فالعمال والأحرار والمحافظون سواسية فى الاستعمار ، كأسنان المشط أو كأسنان الحمار ، يختلفون فى المظهر ويتفقون فى الجوهر ، يتباينون فى الوسائل ويتحدون فى الغايات ، ويقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، ويقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يقولون ، ويختل ميزان العدالة فى أيديهم فيكيلون للشعوب بمكيالين ، ويزنون بميزانين ، ويعتنقون مذهب ماكيفيللى فى السياسة ، فيرون أن الغاية تبرر الوسائل . لذلك رأيناهم يحاجون فرنسا بحقوق مصر ، ثم يهدمون وحدة النيل للاستئثار بالسودان ، لأنهم يمهدون بهذا الاستئثار لابتلاع ما يسمونه

القارة السوداء . ولا تزال تدوى فى سمع التاريخ صيحة شيخ الأحرار غلادستون فى عام ١٨٧٧ حيث كشف عن اختمار الجريمة فى رأس الاستعمار البريطانى لاحتلال مصر ، ثم هدم وحدة النيل ، قال شيخ الأحرار : « إذا هبطنا إلى مصر ، ولينا وجوهنا شطر السودان ، وإذا اتجهنا إلى السودان ، بسطنا سلطاننا من خط الاستواء إلى جنوب أفريقيا. وفرغنا من انشاء امبراطوريتنا الافريقية » . وكذلك كان سيسيل رودس يعمل على مد خط حديدى يصل بين مدينة الرأس ومدينة القاهرة لتدين لسيطرتهم أفريقيا بأسرها .

ولئن طالب المصريون الانجليز بالجلاء عن وادى النيل من المنبع إلى المصب ، قالوا إن مصر هى الشريان الحيوى فى جسم الامبراطورية البريطانية ، ونسوا أو تناسوا أن النيل هو شريان الحياة بالنسبة لمصر والسودان. ثم يقولون إن مصر ، ترديداً لكلمة دزرائيلى، هى السلسلة الفقرية فى جسم الامبراطورية ، ويتغافلون عن أن كسر وحدة النيل يقصم ظهر السودان ومصر جميعاً .

ويصطنعون الثورة فى وجه روسيا السوفيتية إذ يتهمونها بمحاولة سلخ أذربيجان عن ايران ، ولا يتورعون عن فصل السودان عن مصر ، أى فصل الروح عن الجسد .

ويلبسون جلد النمر لفرنسا ليرغموها على التخلى عن سوريا ولبنان، ثم لا يتعففون عن اهتضام مصر والسودان .

— ٨٢ —

ليس من شك فى أن الروح التجارية التى تتسلط على الانجليز فى سبيل تحقيق أربح صفقة بأقل نفقة ، هى هى التى تطغى على شعورهم فى عالم السياسة ، فتدفعهم لأن يظفروا بأعظم غنم بأقل غرم . وهم يحاولون أن يشتروا السودان بثمن بخس دسائس مكشوفة ، يحيكون خيوطها مع صنائعهم ، فيلوحون بأنفسهم دعاة الحرية ، وأبطال الاستقلال ، وينادون بأنهم يتحرقون وجداً على أن يقرر السودان مصيره بنفسه ، ويملأون أفواههم بأنهم يتهالكون غيرة على أن يتمتع السودانيون بالاستقلال الذاتى ، فيجاهرون بضرورة أن يستفتوا بالطرق الدستورية ، وما يبتغون إلا امتصاص النيل من المنبع إلى المصب ، ولئن أكل ذئب الاستعمار وحدة النيل ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون .

لا يقطعون ما أمر الله به ان يوصل

حين ثار النزاع بين انجلترا وفرنسا بشأن فاشودة ، قال السير أدوارد غراى : « نحن لا نستطيع أن نسلم للفرنسيين بأعالى النيل ، لأن النيل هو مصر ، ومصر هى النيل » .

فمن حق المصريين اليوم أن يصارحوا الانجليز أنهم لا يستطيعون التسليم لهم ببتر السودان من جسم مصر ، فى هـذا البتر قضاء على مصدر الحياة .

وفى ١٢ أكتوبر من عام ١٨٩٨ وقف اللورد روزبرى زعيم الأحرار خطيباً فى السوم ، فقال : « نحن نوشك أن نعيد إلى مصر مايعتبر من وجهة نظر الحكومة البريطانية أرضاً مصرية » .

فمن أقدس واجبات مصر أن تهيب ببريطانيا أن كل محاولة ، فى أية صورة من الصور ، يراد بها هدم وحدة النيل ، لا يكون نصيبها إلا الاخفاق .

ولما أقيمت مأدبة تكريماً لكتشنر خطب فيها اللورد كمبرلى فقال : « ليس فى الجلاء عن فاشودة إذلال لفرنسا ، إذ صرحت الحكومة الفرنسية بأن الاقليم مثار النزاع ، إنما هو ملك لمصر » .

فمن حق الوطنية السودانية المصرية أن تملأ سمع المستعمرين بأن الإحجام عن الجلاء عن وادى النيل ، ليس فيه إذلال للسودان ومصر

فحسب ، وإنما هو تهديد خطير لكيانهما واستقلالهما ، أستغفر الله ، بل هو إجهاز على حياتهما المشتركة .

وبتاريخ ٥ أكتوبر سنة ١٨٩٨ كتب اللورد سالسبورى إلى سفير انجلترا فى باريس فقال: «ليس من شك فى أن حقوق مصر فى امتلاك مجرى النيل كانت معطلة حيناً من جراء نجاح دعوة المهدى . على أنها حقوق ثابتة لاتحتمل الجدل ، ولم يبق شك فيها بعد انتصار الجنود المصريين على الدراويش » .

ولقد دفنت لغة الفتح والتسلط ، بيننا وبين اخواننا السودانيين ، إلى غير بعث ، وحلت محلها لغة الوحدة والاخوة . ولا وجود للهجة الاستعمارية الممقوتة المرذولة بين الأخوين الشقيقين ، وإنما وجود تلك اللهجة الآثمة فى خيال المستعمرين الانجليز ، وهى متغلغلة فى أعماق نفوسهم ، فهذا الشريان الحيوى الذى يجرى مباركا فى جسم الوادى ، فيكسوه حلة خضراء من الخصب والنماء ، ويضفى عليه أثواب الحياة ، أولى أن يحرص عليه السودانيون واخوانهم المصريون من حرص الانجليز على اغتصاب قناة السويس التى يسمونها الشريان الحيوى فى جسم امبراطوريتهم القائمة على الغصب والاستعباد . وإن كان دزرائيلى قد وصف قناة السويس بأنها السلسلة الفقرية فى جسم الامبراطورية البريطانية ، فمن خير الانسانية أن تكسر تلك السلسلة الفقرية ، فتطوى صحيفة الاستعمار فى العالم ، وتقضى على مثار الحروب

العالمية التى توشك أن تقوض دعائم الحضارة . فأما كسر السلسلة الفقرية بهدم وحدة وادى النيل فمعناه حرمان شعب النيل من الحرية والحياة .

وفيم الاسراف فى الاستشهاد بأقوال ساسة بريطانيا وتحت أيدينا أقوال اللورد كرومر بطل الحكم الثنائى أو الشركة المزعومة الموهومة التى تمخضت عنها اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ، إذ قال : « لقد كان من الضرورى ابتكار طريقة بحيث يكون السودان مصرياً إلى درجة إرضاء المطالب السياسية العادلة ، وفى الوقت نفسه يكون بريطانياً لكى نقصى عن إدارته تلك الشوائب التى تشوب كيان مصر السياسى » . ولا ريب أن شيخ الاستعمار يلمح إلى وجوب صبغ السودان بالصبغة البريطانية ليبعد عن ربوعه شبح الامتيازات الأجنبية .

وقال اللورد كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » : « إن ضم السودان بواسطة انجلترا ، وهو الذى يقضى على المعضلة الدولية ، قد استبعد على أساس العدالة والسياسة » .

وفى تقريره لعام ١٩٠١ . قال اللورد كرومر ، بعد أن أشار إلى الاعتمادات التى قررها مجلس شورى القوانين لفتح السودان ، لأن السودان جزء من مصر لايتجزأ : « إن هذا الرأى صحيح فى جوهره. ومع ذلك فان الاتفاق الانجليزى المصرى المبرم فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ هو الذى يضع القاعدة لنظام السودان السياسى . ولعل بعض أعضاء مجلس شورى القوانين ، لايفهمون المعنى الحقيقى لتلك الاتفاقية .

ولذلك فانى أنتهز هـذه الفرصة المتاحة لى ، لأقول أنها لاتمس بحال من الأحوال حقوق مصر الشرعية . ولقـد كان الهدف الذى يرمى اليه واضعو الاتفاق ، هو توفير حكومة صالحة للسودان ، ولانقاذ تلك المملكة من المشكلات التى صبتها الامتيازات الأجنبية على رأس مصر » .

وفى تقريره لعام ١٩٠٣ ، حاول اللورد كرومر أن يلقى شيئاً من الضوء على ذلك الموقف الغريب الشاذ فى السودان ، إذ تخفق الراية المصرية ، إلى جانب الراية البريطانيـة ، فوق ربوعه ، على حين أن بريطانيا لاتساهم بنصيب فى نفقات إدارته ، فقال : « لقـد وضعت الاتفاقية الانجليزية المصرية لسنة ١٨٩٩ لغرض واضح هو تجنيب السودان شر القيود الدولية التى ضاعفت من متاعب انجلترا فى إدارة مصر . ولو لم يكن هذا الظرف ، لما كان لنا حق فى رفع العلم البريطانى على الخرطوم ، إلا بقـدر ما يـكون لنا الحق فى رفعـه على أسوان أو طنطـــا » .

ومعذرة إن كنا قد أسهبنا بعض الشىء فى إيراد أقوال اللورد كرومر . فالتاريخ هو الذى يمزق قناع الرياء عن وجه السياسة البريطانية . فلقد تضافرت الحوادث والأحداث على إثبات أن جريمة اغتيال وحدة وادى النيل كانت مختمرة فى رأس الاستعمار البريطانى من عهد بعيد تمهيداً لاقامة امبراطوريتهم الافريقية بالدماء ، وعلى الجماجم

والأشلاء . وكل من له عينان للنظر ، وأذنان للسمع ، وضمير حى ، يعترف بأن الاستعمار البريطانى كان مبيتاً النية على التهام السودان لقمة سائغة ، وأخذ منابع النيل غنيمة باردة ، وما الخوف من تحويل الدول الأوروبية لمجرى النيل ، والاشفاق على السودان من كابوس الامتيازات الأجنبية ، وما ترتب على تلك المأساة المهزلة من أن يرفرف العلم البريطانى إلى جانب العلم المصرى فوق ربوع الخرطوم ، إلا أعاليل فى أباطيل ، أريد بها ستر جريمة الاستعمار .

وتمشى السياسة الاستعمارية بين الأخوين الشقيقين بالسعاية لتضرب وحدة النيل ضربة قاصمة . فاذا لم يفتح أبناء النيل عيونهم على المؤامرات التى تحاك خيوطها فى الظلام ، ومن خلف الأستار ، لتفكيك الوحدة وفصم عرى الاتحاد ، وإذا لم يهبوا صفوفاً متراصة مضحية لاحباط الدسائس التى تدبر فى الخفاء ، فأخشى ما أخشاه أن توقظ الحوادث أبناء النيل إيقاظاً خشناً ، فاذا هبوا من نومهم مذعورين ، أداروا عيونهم الزائغة ، فلم يلمحوا استقلال النيل إلا خيالا متلاشياً ، ولم يجدوا لشعب وادى النيل وجوداً إلا فى ذمة التاريخ .

نعم إن الدسائس السكسونية تحاك بخيوط استعمارية ، إذ يشهد المستعمرون الأرض والسماء على ما فى قلوبهم لحرّية الشعوب وهم لها من ألد الخصام ، فيقولون إنا نبغى استفتاء السودان ، ليقرر السودان مصيره بنفسه ، وما يبغون إلا تمزيق أوصال وحدة النيل .

وكيف يكون الاستفتـــاء حراً رغم هيمنة البريطـانيين على السودان ؟ ! وكيف يكون الاستفتاء مشروعاً ، وموضوعه فصل جزء من جسم الدولة ؟ !

ولئن التحف ذئب الاستعمار بثوب الرياء فهو عار ، فثوب الرياء يشف عما تحته . وعبثاً يحاول المستعمرون أن يطفئوا حرارة إيماننا بوحدة وادى النيل ، إذ يقولون على استحيـاء ، وهم يلبسون مسوح الورع والتقوى ، إننـــا متشبعون بروح العطف على أمانى مصر فى السودان ، وها نحن نريد أن نزيد من قسط مصر فى إدارة السودان ، ونضاعف من نصيبها فى الشركة الانجليزية المصرية ، فلسنا نساوم على حرية إخواننا السودانيين فى سوق الرق الاستعمارى ، وإنمـــا نحن وإياهم نبغى أن يجرى النيل حراً من منبعه إلى مصبه . ولقد لدغنا من جحر الاستعمار البريطانى فى سنة ١٨٩٩ وما يليها مرات فلن نلدغ من جحر الاستعمار أبداً ، ذلك بأنا مؤمنون .

هدم دعاوى الاستعمار البريطانى

يعمل الاستعمار البريطانى جاهداً على هـــدم القواعد الطبيعية والتاريخية التى تقوم عليها ، وحـدة وادى النيل . ولا يتورع دعاته وأبواقه عن إنكار روابط الجنس والدين واللغة والعادات التى تربط بين النازلين على ضفاف النهر العظيم بأوثق وأقدس رباط . وبما أن الانجليزى استعمارى بالطبع ، وبما أن اتهام الحقائق ، واتهام الشعوب ، مختلط بلحم الانجليز ودمهم ، فلا عجب أن يقحم غوردون نفسه على التاريخ الطبيعى ، وهو جندى قد يحسن الكر والفر ، ولكنه ليس بعالم يجيد البحث والتنقيب . بل لقد بلغ من تغلغل الروح الاستعمارية فى صفوف الشعب البريطانى ، أن علمـاءه لا يتعففون عن تسخير علمهم لتشويه الحقائق ، ومسخ الوقائع ، فى المسائل العلمية البحت ، ولا تتراجع ضمائرهم أمام إخضاع حقائق التاريخ لشهوة الاستعمار الجامحة ، فها هم أولاء واضعو دائرة المعارف البريطانية يعصرون قرائحهم إلى حـــد الاحتقان ، ويعذبون الحقائق التاريخية ليعذبوا الشعوب ، ويفرقوا بين الأخوين ، السودانى والمصرى .

لقد ضحى غوردون بنفسه ، أو ضحى به قومـه على مذبح المطامع الاستعمارية ، على أنا ما كنا نحسب أن الرجل يضحى بالحقائق التاريخية على مذبح الشهوات الاستعمارية . ولعل جهله بالتاريخ يشفع له ، فما من شك فى أن الجندى كان والغاً على التاريخ حين زعم : « أن مصر ،

ى أعظم أيامها ، لم تمتد حدودها بصفة دائمة ، جنوبى وادى حلفا » .
بما أن الرجل لا يلبث أن يقع فى تناقض صارخ ، فنحن فى حل من
ن ندع غوردون يتولى الرد على غوردون ، إذ قال فى أعقاب تبرعه
لسابق بالتأكيد : « إن هنالك على التحقيق على مقربة من الخرطوم ،
عض الآثار القديمة من عهد الفراعنة ، وتوجد عند مروى بعض
لأهرام » .

ونترك لبعض علماء الانجليز أمثال هارولد مكميشايل وأديسون
ن يهدما مزاعم غوردون الباطلة . فلقد أوردا الكثير من الشواهد
لتاريخية التى تدل على الروابط القديمة التى تربط بين سكان شطرى
لوادى من عهد الفراعنة ، وأثبتا بالأدلة المادية أن فراعنة مصر قد
شيدوا الحصون فى مديرية دنقلة من أبعد أزمنة التاريخ . ففى عام
١٨٧٩ قبل الميلاد أوغل سيزوستريس الثالث فى السودان حيث أنشأ
لقلاع ، وأقام إدارة ثابتة فى البلاد .

وتلك آثار قدماء المصريين فى السودان تدل عليهم . فأولئك هم
تحتمس الأول والثانى والثالث ، قد أقاموا المعابد ، وشيدوا الهياكل .
وذاك هو سيتى الأول ، ما برحت أعمدة ثلاثة من بقايا معبد قديم ،
تشهد العالم على رسالة الحضارة التى حملها المصريون إلى ربوع السودان
من أقدم عصور التاريخ .

وتقول دائرة المعارف البريطانية إن بدء تغلغل النفوذ المصرى فى

السودان كان فى عهد الدولة القديمة . فى عهد الأسرة الثانية عشرة أنشئت المزارع ، وبنيت الحصون ، إلى حدود بطن الحجر . وإبان حكم الأسرة الثانية عشرة تم إخضاع البلاد سياسياً . وما ابث كهنة آمن أن نفروا خفافاً وثقالا من طيبة فأنشأوا عاصمة مصرية فى ناباتا . على أن دائرة المعارف البريطانية لاتلبث أن تعاودها النزعة الاستعمارية وتتحرك فيها غريزة التفريق ، فتنادى ، رغبة منها فى فصم وحدة النيل ، بأن الشعبين السودانى والمصرى ، يختلفان من كل الوجوه ، وليس أدل على ذلك ، كما تزعم الدائرة المرنة ، من التباين فى الاقبال على العمل بين المصريين والسودانيين ، فالمصريون من أعظم الأجناس إقبالا على العمل ، فى حين أن القبائل السودانية ، سواء أكانوا من العرب أم من الزنوج ، يجنحون بصفة عامة إلى التراخى والكسل .

وتترقى دائرة المعارف البريطانية فى المغالطات التاريخية ، فتزعم أن السودان مؤلف من أجناس مختلفة ، وأديان متباينة . وإذن فهو لايمت إلى مصر بسبب . فبينا شماله يتحدر من أصل عربى ، إذا بجنوبه يتكون من الزنوج . وبينا يعتنق الأولون الاسلام ، إذا بالآخرين من الوثنيين .

ولكن الانصاف التاريخى يهدم دعوى دائرة المعارف البريطانية من أساسها إذ ينادى بامتزاج شعب النيل. فمعظم السودانيين من العرب ، وكذلك معظم المصريين . وغالبية مصر تدين بالاسلام ،

اخوانهم السودانيون ينطقون بلغـــة القرآن ، والأخوان يتكلمان اللغة العربية . والعـادات والتقاليد والذكريات التاريخية بين سكان وادى متشابهة إلى حد أن السودانى حين يكون فى مصر ، والمصرى حين يكون فى السودان ، لايشعر أنه غريب عن وطنه .

ويميناً غير حانث فيها ، ولا متراجعاً عنها ، أن المصرى أقرب ألف مرة إلى أخيه السودانى ، من الانجليزى إلى الاسكتلندى أو الأرلندى ، أن مملكة وادى النيل المتحـدة أدنى إلى الحق والعـدل ، وأقرب إلى نواميس الطبيعية ، من المملكة البريطانية المتحدة .

فى ٢٢ يناير من عام ١٨٨٤ كتب غوردون إلى لورد غرانفيل يقول : « إن السودان ملـكية لافائدة منها ، كـذلك كان ، وكـذلك سوف يظل إلى الأبد » فياليت شعرى ، متى انقلبت الأوضـــاع ، وانعكست الآيات ، فأصبح السودان ملكا تشرئب إليه أطماع الاستعمار البريطانى ؟! إن الوضع قد تغير ، والنظرة قد تبدلت بعد فتحه ، وبعد وضع قواعد الأمبراطورية الأفريقية ، وخاصة بعـد إنشاء مشروع الجزيرة ، وزراعة القطن لتغذية معامل لانكشاير .

لم يكن محمـد على باشا يلهو بالغزو والفتح حين تحركت قوات مصر صوب السودان فى عام ١٨١٩ ، وإنمـا كان يبتغى الوصول إلى منابع النيل ، وضمان مصدر حياة مصر . وكأنما كان ينظر بعين الغيب. ففى التقرير الصادر بتاريخ ١٤ ديسمبر سنة ١٩١٤ قال المستشار المالى

الانجليزى لوزارة المالية : « إن الأرض التى يرويها النيل من جبال الحبشة والبحيرات الكبرى إلى شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، مهما كان الاسم الذى يطلق عليها ، هى كل لا يقبل التجزئة ، ونظراً لتقدم فن الهندسة الذى بلغ الذروة ، فان الدولة التى تبسط سلطانها على منطقة أعالى النيل ، تملك السيطرة على الحياة فى مصر ، وعلى ذلك فالسودان ضرورى لمصر ، بل هو ألزم لها من الاسكندرية » .

وفى ١٦ يناير من عام ١٨٥٧ بلغ حليم بن محمد على الخرطوم فنظم البلاد ، ورتب البريد بين مصر والسودان ، وخفف أعباء الضرائب عن كاهل الأهلين ، وحرم على الجند جبايتها . وفى الخرطوم أنشا مجلساً شورياً من أعيان البلاد ، وأنشأ الخط الحديدى بين حلفا والخرطوم ، وأبطل الرق . وإذن فالمصريون هم الذين أنشأوا الطرق الحديدية فى السودان ، وفتحوا السدود ، وبنوا المدارس ، وأدخلوا زراعة القطن ، وأبطلوا تجارة الرقيق ، وأنشأوا طرق المواصلات ، وعلى الجملة فهم الذين نشروا ألوية الحضارة فى ربوع السودان .

وفى ١٧ يناير من عام ١٨٦٣ تولى الحكم الخديو اسماعيل ، فامتد ملك مصر إلى ما وراء خط الاستواء ، وانضوت زنجبار وأوغندا تحت لواء مصر ، ومد الخط الحديدى بين حلفا وسواكن . ومد اسماعيل رواق مصر على سواحل البحر الأحمر ، واكتشف معادن البترول والرصاص والحديد وفتح دارفور وبات الأمن والرخاء فى ربوع السودان مضرب الأمثال فى العالم بأسره .

وشهد عام ١٨٨١ موقفاً تاريخياً خالداً ، يملأ العين نوراً ، والقلب ناراً ، إذ جلس عشرون نائباً سودانياً جنباً إلى جنب مع اخوانهم المصريين فى مجلس شورى النواب ، وصافحت قلوب المصريين قلوب اخوانهم السودانيين ، وعانقت أرواح السودانيين أرواح اخوانهم المصريين ، وامتزجت مصر بالسودان ، واندمج السودان فى مصر ، ولم يكن السودانى يمثل السودان ، ولم يكن المصرى يمثل مصر ، وإنما كان كلا الأخوين يمثل وادى النيل .

ويريد المستعمرون أن يهدموا الوحـــدة ، ويطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المستعمرون .

الروابط الاقتصادية بين شمال الوادى وجنوبه

إلى جانب الروابط الطبيعية والتاريخية والسياسية التى تربط بين شمال وادى النيل وجنوبه ، توجد الروابط الاقتصادية الوثيقة ، فليس من الغلو فى شىء أن يقال إن السودان جزء من مصر لايتجزأ ، وليس من الاسراف فى كثير أو قليل أن يقال إن مصر من الوجهة الاقتصادية متممة للسودان ، والسودان متمم لمصر ، فلا غنى لنصفى الوادى أحدهما عن الآخر .

وفى العصر الحديث أصبح للمسائل الاقتصادية قيمتها وخطرها . وإذا كان بعض المفكرين يرى لخير الانسانية ، وفى سبيل القضاء على الحروب ، أن يكون العالم بأسره وحدة اقتصادية مع انعدام الروابط بين الشعوب من كل النواحى ، فأولى أن يكون بين السودان ومصر وحدة اقتصادية مدعمة بالوحدة الطبيعية والسياسية معاً .

فأما أن هناك وحدة سياسية بين شطرى الوادى فهذا ما لا يرقى الشك إليه ، وما لاسبيل إلى الجدل فيه ، فوجود قوات أجنبية معادية مسيطرة على أعالى النيل يهدد استقلال مصر تهديداً خطيراً ، إن لم يقوض دعائم هذا الاستقلال تقويضاً تاماً . كما أن قيام جنود أجانب فوق أرض مصر يهدم استقلال النيل من أساسه .

إن السياسة البريطانية تريد تمزيق أوصال وحدة النيل ، ومحو كل

أثر لمصر فى السودان ، والاستئثار به من دون المصريين ، ولكى تسدل الستار على أطماعها الاستعمارية تلوح للسودانيين بالاستقلال ، فى حين أنها تريد أن تتخذ منه مستعمرة بريطانية لاينازعها فيها منازع . كذلك صنعت فى الماضى ، وكذلك تحكم التدبير اليوم .

وتولدت الرغبة الجامحة فى نفوس المستعمرين حين قال غلادستون فى عام ١٨٧٧ ، أن الاستيلاء على مصر يكون توطئة للاستيلاء على السودان ، واتخاذ السودان نقطة ارتكاز للوثبة إلى خط الاستواء ، وفى كل أولئك بسط اليد لمصافحة جنوب أفريقيا ، والفراغ من بناء الأمبراطورية الأفريقية .

وتدرجت الفكرة حين اعتزم سيسيل رودز مد خط حديدى من مدينة الرأس إلى مدينة القاهرة .

وكان الشروع فى تنفيذ الجريمة حين حملوا مصر على إخلاء السودان كرهاً فى عامى ١٨٨٤ و ١٨٨٥ ، ثم استعادته بدماء مصرية ، وأموال مصرية ، ثم فرضوا شركة الذئب والحمل فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ .

ولقد رفع الستار عن جناية فصل السودان عن مصر . فلقد كان هدلستون حاكم السودان العام يمنى السودانيين باطلا بالاستقلال بعد عشرين سنة لا تنقص ولا تزيد ، كأن استقلال الشعوب مرحلة دراسية لا بد من قطعها ، لا حقاً طبيعياً لها ، ولا مندوحة عن قطع

المرحلة فى عشر وعشر سنين عـدداً ! وكأن السودان فى سنة أولى تحضيرى استقلال ! وكأن السودانيين من الغفلة بحيث تجوز عليهم أباطيل السياسة الانجليزية ، وكأن المصريين والسودانيين من البلاهة السياسية المطبقة بحيث ينسون أن جيش الشؤم والعدوان نزل بمصر عام١٨٨٢، وكان الاحتلال البريطانى مؤقتاً .أقبل لمجرد توطيد العرش الخديوى وأنه لايلبث حتى ينسحب . وها هو لايزال كابوساً جاثماً على صدر مصر بعد أكثر من أربعة وستين عاماً ، وأكثر من أربعة وستين وعداً سكسونياً بالجلاء .

إن الانجليز النازيين يعتقدون أن الديمقراطية ليست مادة للتصدير وخاصة لما يسمونه الأجنـاس الملونة المتأخرة ، وأنهم مبعوثون من العناية الإلهية برسالة الحضـارة ، ونشر ألويتها بين تلك الأجنـاس يستوى فى تلك العقيدة الباطلة العمال والأحرار والمحافظون .

وما كان هدلستون الحـاكم العام الانجليزى للسودان يكتم أنه فى التصريحات التى يدلى بها تمهيداً لفصل السودان عن مصر ينطق باسان اتلى كبير العمال ، ورأس الوزارة العمالية . وما كانت الدعاية التى بثها ، والأفاعيل التى أتاها ، والدمى التى حركها ، والمظـاهرات التى دبرها ، لبتر السودان عن جسم مصر إلا برضا وتعضيد وزارة العمال .

ولم يتورع اتلى عن أن يجاهر بأنه هو الذى وضع تلك التصريحات الانفصالية الاجرامية فى فم معوّل الاستعمار هدلستون .

وما كان بيفن فيما يملأ فمه به إلا مبشراً بسياسة العمال التى تتشابه وسياسة المحافظين كما تتشابه نقطتا ماء ، أو فصيلتا دماء !

وفى عام ١٩٢٤ كان اللورد بارمور يمثل وزارة العمال فى مجلس اللوردات فضرب على نفس النغمة التى تؤذى سمعنا اليوم إذ قال : « أريد أن أقول ، فى عبارة جلية صريحة ، أن حكومة جلالة الملك لاتنوى التخلى عن السودان بحال من الأحوال ، وهى تقر بالتعهدات التى أخذتها على عاتقها حيال السودانيين ، تلك التعهدات التى لايمكن التنصل منها بغير ضياع النفوذ والهيبة فى تلك البقاع الشرقية » .

فما أشبه الليلة بالبارحة ! وما أشبه بارمور وبيفن ، بايدن وتشرشل !

فأما ما يزعمه المستعمرون من التدرج بالسودان فى سبيل الحكم الذاتى فقد علمنا تاريخ الاستعمار البريطانى أنه لا يكون إلا تدرجاً بالشعوب المغلوبة إلى هاوية الفقر والمرض والجهل .

وما شأن الانجليز فى إعطاء ضمانات لمصر عن مياه النيل ؟ وكيف يكون الضامن هـــو منبع الخطر ، ومصدر الشر ؟ ومن يضمن لنا الانجليز من الانجليز أنفسهم ، وسوابقهم ، وسابقتهم فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٢ إذ هددوا مصر بقطع مياه النيل عنها ، لا تدعو لاطمئنان إنسان له مسكة من العقل والذاكرة ؟

ليس مشروع الجزيرة إلا مشروعاً استعمارياً . وما الهبة الانجليزية بمليونى جنيه للسودان ، إلا الطعم الذى يراد به اصطياد ثقة السودانيين

وإلا فالسودان بحاجة إلى مصر ، ومصر بحاجة إلى السودان ، تشهد بذلك النفقات التى أنفقتها مصر بسخاء لمد السكك الحديدية ، وإنشاء المشروعات العمرانية ، وسد العجز فى الميزانية السودانية .

لا يزال السودان بلداً بكراً لم تستغل موارده بعد . ولقد هوت به السياسة الاستعمارية إلى حضيض الانحطاط أو لم تنهض به فى سبيل المدنية والعمران . ولولا جهود أبنائه لما ازدهرت تجارته ، ولا نمت حاصلاته رغم خصب الأرض وسعتها .

وما من شك فى أن مصر هى المجال الحيوى لتصريف تجارة السودان . وما ميناء بور سودان الذى أنشىء بأموال مصرية إلا الاحتيال المجسم من جانب السياسة البريطانية لقطع المواصلات التجارية بين السودان ومصر .

وفى المستقبل سوف تتدفق البضائع السودانية على مصر . وهى اليوم فى ازدياد . ذلك بأن مصر هى الطريق الأقرب ، وهى التى تستوعب أكبر قسط من حاصلات السودان .

ولقد ضاقت مصر بسكانها أو كادت ، ولا سبيل إلى تخفيف الضغط إلا بالهجرة إلى السودان . ولا عبرة بالسموم التى ينفثها فى المجالس فقراء النفوس ، فقراء الايمان الوطنى ، إذ يقولون ، تزهيداً فى وحدة وادى النيل ، واصطناعاً لعدم جدواها أن المصرى لا يميل بطبيعته إلى الهجرة ، وإذا افترضنا أنه سوف يكون بحاجة إلى الهجرة

للسودان فان ذلك لن يكون إلا بعد خمسين سنة ، وعليه أن يستصلح الأراضى البور التى لديه والتى تبلغ قرابة أربعة مليون فدان قبل أن يفكر فى الاشتراك مع أخيه السودانى فى استغلال أرضه ، ثم عليه أن يفكر فى استغلال موارد بلاده قبل أن يفكر فى استغلال موارد السودان ، والذى يهدم هذا الدليل الباطل من أساسه هو أن السياسى الجدير بهذا اللقب يجب أن يمد بصره إلى المستقبل ، وينظر إلى خمسين سنة قادمة .

إن على السودانيين والمصريين أن ينظموا بيتهم بالاشتراك والتعاون فيما بينهم ، ويضبطوا الروابط الاقتصادية بينهم دون الاحتكام إلى الاستعمار البريطانى وإلا أكل ذئب الاستعمار مصر والسودان جميعاً .

وإن كل محاولة لهدم وحدة وادى النيل ايرفضها أبناؤه فى عزة الأبى ، وكرامة الوطنى .

الحكم الثنائى فى المسرحية الاستعمارية

فى المسرحيـــة الاستعمارية التى مثلت على مسرح مجلس العموم البريطانى ، أثيرت مسألة شركة الذئب والحمل ، فأزيح الستار عن المؤامرة المدبرة من الاستعمار البريطانى ضد وحدة وادى النيل ، فقد تساءل تشرشل : « هـل لدى رئيس الوزراء تصريح يدلى به عن السودان ؟ » .

فأجابه اتلى يقول : « إن هـذا الموضـوع لا شأن للسودان فيـه فالسودان موضوع آخر هو موضوع الحـكم الثنائى » .

فمزق هـذا التصريح القنـاع عن تبييت الجريمة ضد وحدة وادى النيل . ولم يبق شك فى أن إرجاء حل المسألة السودانية ، أو وضعها على الرف ، أو وضعها فى الثلاجة ، أو إجراء عملية البتر فى الحـال ، كل أولئك يرمى إلى تمزيق أوصال الوحدة .

إن التاريخ والواقع والمنطق ، كل أولئك ينادى بأن الاتفاق الثنائى المزعوم الموهوم الذى تمخضت عنه اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ الباطلة ليس إلا شركة وهمية لانجلترا فيها كل الغنم ، وعلى مصر كل الغرم .

فبعد إعادة فتح السودان بالدماء والأموال المصرية لم تتورع بريطانيا النازية عن ضمه إلى أملاك التـاج لأن ذلك الضم يتجافى مع مبادىء الحق والعدل ، ويتنـــافى مع نواميس الطبيعة . ولم يتعفف

الاستعمار البريطانى عن اتهام السودان لقمة سائغة . وأخذ منابع النيل غنيمة باردة ، لأن ذلك يتنافى مع قواعد القانون والأوضاع الدولية ، بل لأن انجلترا وازنت بين الربح والخسارة فى الضم الصريح ، فلما رجحت كفة الخسارة على كفة الكسب ، آثرت العدول عن الضم العلنى ، وابتكرت عبقريتها الاستعمارية شركة الذئب والحمل فى ثياب الحكم الثنائى .

وهل تاريخ الاستعمار البريطانى إلا تاريخ الطفيليات ؟ وماذا يضير انجلترا أن تزرع مصر وهى تحصد ، وتنفق مصر من دمها ومالها وهى تجنى ثمرات الاستغلال ، مادام الاستعمار متجرداً من كل ضمير ؟

والآن ندع الكلمة للورد كرومر إذ قال فى تقريره لعام ١٨٩٩ : « السودان هوة تبتلع الملايين كما يذوب الثلج أمام حرارة الشمس فهو سبب وهن المالية المصرية وضعفها » .

وفى الفترة بين ١٨٨٩ و ١٩١٢ كانت الخزانة المصرية هى التى تتحمل سد العجز فى ميزانية السودان سنوياً . ولقد بلغ مجموع تلك المبالغ ٢١٥ ر ٣٥٣ ر٥ جنيهاً انجليزياً .

وطوال الحقبة التى انقضت بين ١٨٩٩ و ١٩٢٤ ، أو بعبارة أخرى بين ميلاد الحكم الثنائى ، وطرد القوات المصرية من السودان عنوة واقتداراً ، كانت مصر تساهم فى النفقات العسكرية المشتركة بنصيب لايقل عن مليون جنيه فى العام .

يضاف إلى كل تلك الأعباء أن الحكومة المصرية قدمت النفقات عن سعة للقيام بالمشروعات العمرانية كمد الطرق الحديدية ، وإنشاء ثغر بور سودان . ولقد بلغت تلك النفقات حوالى ٤٫٣٨٧٫٠٠٠ جنيه انجليزى .

وماذا جنت مصر من الثمرات فى مقابل تلك الأعباء الباهظة ؟ لاشىء اللهم إلا الألفاظ الجوفاء ، والمظاهر الكاذبة . ففى ٢٥ يونيه من عام ١٩٢٤ وقف اللورد كرزون خطيباً فى مجلس اللوردات فملأ فمه بالعبارات التالية : « لولا النفقات المالية التى تقوم بها مصر ، لتردى السودان فى هاوية الافلاس . ولو أنكم ذهبتم إلى حد القول بأن مصر لاصلة لها بالسودان إلا صلة الماء ، وأنكم أقصيتم مصر عن أن يكون لها أى صوت أو نصيب فى إدارته على الاطلاق ، فان السودان يصبح فى حالة عجز تام ، فى الظروف القائمة ، عن النهوض بأعبائه » .

وعلى ضوء منطق اللورد كرزون نستطيع الحكم بأن الاستعمار البريطانى يحرص كل الحرص على استبقاء خيال الحكم الثنائى ، إذ يبغى تسخير مصر فى احتمال أثقال النفقات ، دون أن يكون لها شىء من الثمرات ، ولكى تكون لانجلترا حصة الأسد ، وتخرج مصر من الشركة الوهمية بصفقة المغبون .

وعلى الرغم من هذا الحكم الثنائى ، لم يتحرج أحد طرفى الشركة من أن يجرد الشريك المرفوع من كل مظاهر الاشتراك ، فيطرد قواته ،

ويهدد مصدر حياته . فلقد انتزعت القوة الغشوم الجنود المصريين من ربوع السودان قوة واقتداراً ، ثم أمعنت فى الجناية والتجنى ، فأنذر اللورد اللنبي عميد الدولة البريطانية بمصر بأن يقطع عنها مياه النيل برفع القيود عن المساحة التى تزرع قطناً فى الجزيرة من ٣٠٠,٠٠٠ فدان إلى مساحة غير محدودة. وإباحة زراعة القطن إلى ما لا نهاية . مخالفاً بذلك أبسط قواعد الحق والعدل .

ومن المظاهر الكاذبة ما تنص عليه اتفاقية ١٨٩٩ فى مادتها الثانية: « يستعمل العلم البريطانى والعلم المصرى معاً فى البحر والبر بجميع أنحاء السودان ما عدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها سوى العلم المصرى » .

فقد تبرع الاستعمار البريطانى بذلك المظهر الأجوف الخفاق ليقصى النفوذ الأجنبى عن السودان مخافة تحويل مجرى النيل وخشية أن يزرح السودان تحت أعباء الامتيازات الأجنبية .

وتجود السياسة الاستعمارية على المصريين بالقشور ، وتحتفظ هى باللباب ، فتقول المادة الثالثة من شركة الذئب والحمل : « تفوض الرياسة العليا العسكرية والمدنية فى السودان إلى موظف واحد يلقب بحاكم عام السودان ، ويكون تعيينه بأمر عال خديوى بناء على طلب حكومة جلالة الملكة ، ولا ينفصل عن وظيفته إلا بأمر عال خديوى يصدر برضاء الحكومة البريطانية » .

وها هو هدلستون الحاكم العام للسودان خلق الحركة الانفصالية خلقاً ، ثم غذاها ونماها ، ثم شجعها وقوى شوكتها ، ثم كان المعول الهدام لوحدة وادى النيل جهرة وعلانية وعلى الرغم من كل أولئك فلم يتخل عن مركزه إلا لأنه ينوء تحت أعباء السنين ! وبعد أن أتم عملية الهدم الموكولة اليه من الاستعمار البريطانى .

وإذا كان الانجليز يقولون إن لكل سياسة جديدة رجالا جدداً ، وإذا كان هدلستون العسكرى قد أتم المهمة المنوطة به ، فلا بأس أن يجيئوا بهاو السياسى ليعمل على صبغ عملية فصل السودان عن مصر بالصبغة الشرعية ، وللقوة واستعمال العنف مرحلة ، وللسياسة والتغرير والتضليل مرحلة أخرى .

ثم تفقد مصر حتى القشور ، وتخرج من الاتفاق صفر اليدين ، فيصبح حاكم السودان حاكماً بأمره ، وتتركز فى يده كل السلطات ، ويستأثر الانجليز بالمناصب العليا ، ويلقون للسودانيين بالوظائف الدنيا ، ويخرج المصريون منها وكفهم صفر ، ولا يسمح لهم إلا بالتقاط الفتات المتساقط من موائد الاستعمار ، وتتجمع كل السلطات فى مجلس الحاكم العام ، ثم يخلق المجلس الاستشارى خلقاً ليكون أداة للفصل بين شمال السودان وجنوبه ، بعد أن فصل بين شمال الوادى وجنوبه .

وتحت الحكم الثنائى ، وبعد اتفاق ١٨٩٩ يرزح السودان تحت

أثقال حكم استبدادى مطلق لا يقل استبداداً عن حكم روسيا فى العهد القيصرى ، وحكم تركيا فى العهد الحميدى كما يقول توينبى الانجليزى المنصف .

* * *

وأما بعد ، فأى اتهام وجهته الدعاية البريطانية ، إبان الحرب العالمية الثانية ، إلى المانيا النازية ، إن صدقاً وإن كذباً ، لم تتورط فيه بريطانيا ، بل لم تغرق فيه إلى أذنيها ، فى تاريخها الاستعمارى الدامى الصفحات ، الحافل بالجرائم والآثام ، الملىء بالتغرير والتضليل ، الطافح بخلف الوعد ، ونكث العهود ، حتى استحقت لقب « بريطانيا النازية » .

لقد كان المؤرخ الألمانى الكبير تريتشكه يسمى بريطانيا « سارقة الأمم » ثم يعدد سرقاتها لجبل طارق ومالطه وقبرص ومصر وعدن والهند . وإذا كان جزاء السارق فى الشريعة الاسلامية قطع اليد ، فما أحرى الاستعمار البريطانى بأن يقضى عليه القضاء الأخير فهو مثار الحروب العالمية ، وهو علة انحطاط الشعوب ، ومجلبة الفقر والمرض والجهل للأمم التى تنوء تحت عسفه وجبروته .

إن مكافحة الاستعمار مشروعة ، وهى فرض عين ، لا فرض كفاية ، على كل وطنى ووطنية ، وإذا كان أبناء النيل ينشدون الوحدة والجلاء ، ولا يرضون عنهما بديلا ، فالجهاد مقدس فى سبيل النيل .

ومن خطب الحرية لم يغلها مهر .

فهرس

	صفحة
البرنامج الوطنى — تحرير النيل	١
وحشية الاستعمار البريطانى	١٢
بريطانيا النازية	٢١
السياسة البريطانية بين حربين	٣٠
السياسة الاستعمارية فى ثوبها الحقيقى	٤٣
تصفية الامبراطورية البريطانية	٥٢
وحدة وادى النيل حقيقة طبيعية لا يمارى فيها الا المستعمرون	٦٤
الاستعمار عدو الوحدة	٧٠
الانجليز المستعمرون يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم	٧٦
لايقطعون ما أمر الله به أن يوصل	٨٣
هدم دعاوى الاستعمار البريطانى	٨٩
الروابط الاقتصادية بين شمال الوادى وجنوبه	٩٥
الحكم الثنائى فى المسرحية الاستعمارية	١٠١

للمؤلف

السلام الاجتماعى

نزعة صادقة نحو الاصلاح ،
دستور للقضاء على الفقر والجهل والمرض ،
آراء حرة لعلاج مشاكلنا الاجتماعية

الناشر

دار الفكر العربى

شارع القصر العينى عمارة ماراسبينى بالقاهرة

الثمن ٣٠ صـ